مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الدلالات الروحية والخلقية للعبادات عند المحاسبي " الصلاة أنموذجاً":

دراسة تحليلية

د. نجاة سعد أحمد جاد الرب

مدرس بقسم الفلسفة

كلية الآداب – جامعة المنيا

DOI: 10.21608/QARTS.2022.128828.1397

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد (٥٦) يوليو ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

الدلالات الروحية والخلقية للعبادات عند المحاسبي " الصلاة أنموذجًا":

دراسة تحليلية

الملخص:

تنهض العبادات دليلاً على حسن طاعة العبد لله وتعظيمه إياه.فضلاً عنْ دورها الفعّالِ في توثيقِ الصِّلةِ بينَ الإنسانِ والحقِّ منْ جهةٍ، وتحقيقِ كمالهِ الأخلاقي في علاقتهِ بالخلقِ منْ جهةٍ أخرى، وتحصيلُ هذهِ العباداتِ الشَّرعيَّةِ على وجهِ الكمالِ بأركانِها الظاهرةِ ،ودقائقِها الباطنةِ كانَ مصدرَ إلهامٍ لشيوخِ الصّوفيَّةِ منْ أهلِ العرفانِ ،ومنْ ثمَّ جاءتْ هذهِ الدراسةُ لتكشفَ عنِ الدلالاتِ الرّوحيَّةِ والخلقيَّةِ لواحدةٍ منْ أعظمَ العباداتِ الشَّرعيَّةِ وهيَ الصَّلاةُ عندَ أحدِ أقطاب التصوف السني في عصره وهوَ المحاسبي. وقدْ توصلتُ منْ خلالِ الدِّراسةِ إلى عدةِ نتائجَ منها: ربطَ المحاسبيُّ ربطاً علياً بينَ معرفةِ اللهِ – جلَّ شأنُهُ – منْ جهةٍ، وسائرَ أعمالِ البرِّ منْ جهةٍ أخرى، وجعلَ العلاقةَ بينهما طرديَّةً، فكلما كَمُلتْ معرفةُ العبدِ باللهِ، كَمُلتْ معها أعمالهُ على وجهِ التمامِ والعكسُ صحيحٌ، فالمعرفةُ مفتاحُ وأصلُ كلَّ ما يقومُ بهِ الإنسانُ.تتبدى جدةُ آراءِ المحاسبي وتفردهِ في آرائهِ حينَ يُؤكدُ على ضرورةِ حضورِ العقلِ في الصَّلاةِ بأركانها المختلفةِ، بلْ ويجعلهُ وسيلةً للتحققِ بمقامي الإيمانِ والإحسانِ بكلِّ ما ينطويانِ عليهِ منْ دلالاتٍ روحيَّةٍ وخلقيَّةٍ، وهوَ ما يعكسُ أهميةَ العقل ومكانته الرفيعة عنده.

الكلمات المفتاحية: الصوفية ، العبادات ، الصلاة ، الأخلاق، العقل ، القلب.

المقدمة

لمّا ابتدأَ اللهُ – سبحانَهُ – الخلق جعلَ الإنسانَ في المرتبةِ الأخيرةِ زمنياً، فجاءَ بعدَ سائرِ مخلوقاتهِ جميعاً، لكنَّهُ كانَ في المرتبةِ الأولى منْ حيثُ الشّرفِ والرَّفعةِ، وقدْ أشهدَ اللهُ – عزَّ وجلَّ – الإنسانَ على نفسهِ فحثَّهُ على معرفتهِ والتعظيمِ لهُ والإجلالِ لقدرهِ ووعدهِ ووعيدهِ بتحصيلِ ما افترضَهُ عليهِ منْ عباداتٍ هي في جوهرها المقصدُ الأخيرُ منْ عمليةِ الخلقِ كلِّها.

منْ هنا جاءتْ الشَّريعةُ بأحكامها لتكفلَ بيانَ الحدودِ المختلفةِ لسائرِ العباداتِ الشَّرعيَّةِ المفروضةِ منْ صلاةٍ وزكاةٍ وصومٍ وحجٍ وغيرها، تلكَ الأحكامُ الشَّرعيَّةُ تمثلتْ بإصلاحِ ظاهرِ العبدِ، وموضوعها الجوارحُ الظاهرةُ. وقدَ عُنِيَ بها الفقهُ أيَّما عنايةٍ، ولمْ يفتأْ الفقهاءُ في توضيحها وبيانِ أحكامِها وشرائطها طوالَ الوقتِ. لكنْ الصّوفيَّةِ – بوصفهم أهلُ الحقيقةِ – يهتمونَ بأعمالِ القلوبِ فلمْ يقفوا عندَ حدِّ الأحكامُ الظّاهرةُ للعباداتِ الشَّرعيَّةِ فَحَسْبِ، بلْ تخطوها للتأكيدِ على أنْ جوهرَ هذهِ العباداتِ وحقيقتها يتمثلُ في دلالاتها الرّوحيَّةِ والخلقيةِ المعنيةِ بإصلاحِ باطنِ الإنسانِ وموضوعها الجوارحُ الباطنةُ، ولكي تستوفى تلكَ العباداتُ على وجهِ التمامِ ينبغي على العبدِ التثبتُ والنظرُ منْ أنْ يكونَ كلُّ فعلٍ منْ أفعالها مُستوفياً لأحكامِهِ الظّاهرةِ وقيمتَهِ الباطنةِ، تلكَ التي تتضافرُ فيما بينها لتؤكدَ على حقيقةٍ أخيرةٍ وهيَ صدقُ العبوديَّةُ والإخلاصُ في التَّقربِ منَ اللهِ – تعالى – ومحبتهِ وطلبِ مرضاتهِ. هذهِ الحقيقةُ يدورُ في فلكها الصّوفيُّ القاصدُ للتحققِ بمقامِ الإحسانِ طوالَ الوقتِ في كلِّ ما يقومُ بهِ منْ قولٍ أو فعلٍ وثمرتُها الوصلُ باللهِ، كما تنعكسُ إيجاباً على حياتِهِ الأخلاقيَّةِ مَعَ الخلقِ.

بناءً على ذلكَ، تتبدى أهميةُ هذهِ الدراسةُ التي جاءتْ للكشفِ عنِ الدلالاتِ الرّوحيَّةِ والخلقيَّةِ للعباداتِ عندَ واحدٍ منْ أهمِّ رجالِ التَّصوفِ في عصرهِ وهوَ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبي (ت:243هجرية) واختياره الصلاةِ عندَهُ كنموذجٍ للعبادةِ على وجهِ الخصوصِ فلَهُ ما يبررهُ.

فالمحاسبي من أهم شيوخ التصوف السني المعتدل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وما تركه لنا من مصنفات متعددة في الفقه والكلام والتفسير والتصوف يكشف عن خطره ومكانته الفريدة بين رجال الفكر في عصره بوجه عام تلك المكانة التي يكاد يجمع عليها كتاب التراجم وشيوخ الصوفية.فقال الخطيب البغدادي(ت:٤٦٣ هجرية):" المحاسبي أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن"(١).أما القشيري(ت:٤٦٥ هجرية) فقال: عديم النظير في زمانه علماً،وورعاً، ومعاملة، وحالاً.(٢) وجاء تاج الدين السبكي(ت:٧٧١ هجرية) ليقر بأنه:"علم العارفين في زمانه وأستاذ السائرين الجامع بين علمي الظاهر والباطن.. وهو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها"(٣).

ومنْ زاويةٍ أخرى لدى المحاسبي قناعةٌ متأصلةٌ بأنَّ رعايةَ حقوقِ اللهِ – عزَّ وجلَّ – تقتضي معرفةَ أعمالِ القلوبِ، والجوارحِ التي تعبدَ اللهُ بها عبادهُ في سائرِ ما أمرَ بهِ، ثمَّ العملُ بأمرهِ ونهيهِ عندَ مواضعهِ وعللهِ،لكن أعمال الباطن عنده تفوق أعمال الظاهر ؛لأنها لا تقف عند حد تحصيل العبادات المختلفة فحسب، بل تتجه للتأكيد على الصدق والإخلاص لله وحده، ومن ثم اصبح العمل بأعمال القلوب عند المحاسبي أشرف من أعمال الجوارح، وفي مقدمتها الصلاةُ التي اكتسبتْ أهميةً كبيرةَ جعلتها أعظمَ العباداتِ التي يتقربُ بها العبدُ للهِ – جلَّ شأنهُ – ويكفي أنْ ترسمَ بحدودها وأحكامها الظاهرةِ

والباطنةِ الحدَّ الفاصلَ بينَ الكفرِ والإيمانِ حتى قالَ تعالى:"إنَّ الصلاةَ كانتْ على المؤمنينَ كتاباً موقوتاً" (النساء: ١٠٣).

أمّا عنِ الدراساتِ السابقةِ فلمْ يُعدمْ المحاسبيُّ اهتمامَ الباحثينَ – سواءَ العربِ أو المستشرقين – بلْ لقدْ أدركوا أهميتهُ وخطرهُ في الحياةِ الروحيَّةِ على مدى تاريخِ الفكرِ الصوفي، ومعَ ذلكَ ظلتْ أقلامهم بعيدةً عنِ استقصاءِ موضوعِ هذهِ الدراسةِ بصفةٍ خاصةٍ على حدِّ علمي.

استنادًا إلى ما سبقَ فقدْ جاءتْ هذهِ الدراسةُ للكشفِ عنْ الدلالاتِ الروحيةِ والخلقيةِ التي تنطوي عليها الصلاةُ كعبادةٍ عندَ المحاسبي تُعدُّ منْ أهمِّ العباداتِ بأركانها الظاهرةِ ودقائقها الباطنةِ. وقدْ حاولتُ منْ خلالها الإجابةَ عنْ عدةِ تساؤلاتٍ هيَ:

- ما معنى العبادة، وما أهميتها في الإسلامِ؟
- ما أهمية الصلاةِ كعبادةٍ بوجهٍ عامٍّ؟
- ما هيَ الدلالاتُ الروحيةُ والخلقيةُ التي يلزمُ المصلي التحققَ بها عندَ الاستعدادِ للصلاةِ عندَ المحاسبي؟
- ما هيَ الدلالاتُ الروحيةُ والخلقيةُ التي اشترطها المحاسبي وينبغي على المصلي إتيانها عندَ الدخولِ في الصلاةِ؟
- ما هيَ الدلالاتُ الروحيةُ والخلقيةُ التي حدَّدها المحاسبي للمصلي عندَ الانتهاء منَ الصلاةِ؟

وفي هذا الإطار، جاءت هذه الدراسة في النقاط الآتية:

المقدمة :

أولاً: العبادةُ في الإسلامِ مفهومها وغايتها.

ثانياً: الصلاةُ مفهومها وأهميتها.

ثالثاً: الدلالاتُ الروحيةُ والخلقيةُ للصلاةِ عندَ المحاسبي:

وتشتملُ على ما يلي:

أ--الدلالاتُ الروحيةُ والخلقيةُ للمشي إلى الصلاةِ.

ب – الدلالاتُ الروحيةُ والخلقيةُ للدخولِ في الصلاة.

ج – الدلالاتُ الروحيةُ والخلقيةُ للفراغِ منَ الصلاةِ.

الخاتمةُ ونتائجُ البحثِ.

ومنْ هذا المنطلقِ فقدْ نهجتُ منهجاً تحليلياً في كلِّ خطوةٍ منْ خطواتِ الدراسةِ للكشفِ عنْ حقيقةِ الصلاةِ – كعبادةٍ في جوهرها – عندَ المحاسبي وعولتُ في ذلكَ كلِّهِ على نصوصِ المحاسبي وحدهِ، كما لجأتُ – في بعضِ الأحيانِ وَحَسَبْ ما تقتضيه الحاجةُ – إلى المنهجِ المقارنِ للكشفِ عنْ علاقاتِ التأثيرِ والتأثرِ– إنْ وجدت – بينهُ وغيره منْ رجالِ الفكرِ والتصوفِ.

وتفصيلُ ذلكَ على النحوِ التالي:

أولاً: العبادة في الإسلام مفهومها وغايتها:

لاشك أن الدين في مجمله هو حالة شعورية ووجدانية تمتد بين العبد ومولاه، تشكل علاقة روحية خاصة تظل قائمة على مدى سنوات عمره، وتتبدى بحقيقتها في ذلك الجانب القلبي من كل مخلوق حين يقر بألوهية الخالق – جل وعلا – ووحدانيته التي لا تليق بسواه،فيستسلم له تمام الاستسلام ويقر بذلك في جل حركاته وسكناته التي يكون سمتها الخضوع والذل لخالق الكون وعالم الغيب الله – سبحانه وتعالى – وحده دون غيره.

لهذا لما سئل سيد الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم – عن معنى كلمة"الشرح" الواردة في قوله تعالى"فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام". (الأنعام:١٢٥) كان جوابه الشرح نور يقذفه الله في قلب العبد فينشرح له الصدر،أما علامته فتتمثل في التجافي عن الدار الدنيا والإنابة إلى الدار الآخرة(٤).

فضلاً عن ذلك فإن العبد في كل ما يصدر عنه من أفعال وسلوكيات يترجم لحقيقة الدين في داخله، ومدى حبه وإقباله على مولاه وعكوف قلبه على محبته وطلب مرضاته وطاعته باجتناب نواهيه ولزوم أوامره بعد العلم بوجوده تعالى وربوبيته وقدرته وعظيم شأنه والإقرار بسائر كتبه ورسله وبما جاء فيها من أوامر ونواه ووعد ووعيد.

فالإنسان بطبيعته كائن متدين، تسري فيه روح التدين الغريزي، وهو ما أكد عليه الإمام محمد عبده حين جعل الدين شعوراً فطرياً لدى المخلوق بأن فوق هذا العالم المادي الذي يعرفه بكافة تفصيلاته ومخلوقاته وبكل ما يتضمن من منافع ومضارهناك موجود غيبي صاحب الملك وله السلطان على كل ما عرفه وما لم يعرفه،وهو في الوقت

ذاته يفوض ذلك السلطان الغيبي ويحيله على كل ما يجهل سببه في عالمه المشهود. من ثم جعل العبادة تعظيماً ينشأ عن الاعتقاد بالسطة الغيبية التي وراء الأسباب.(٥)

والحق – الذي لا مراء فيه – أن الدين ينطوي على جانبين لا قوام له إلا باجتماعهما معاً،أما الجانب الأول فيتمثل في الاعتقاد،والآخر فيتحقق بالعمل الذي يعظم ويؤكد على الجانب الأول، وهو ما يتحقق من خلال العبادات التي تحدد العلاقة بين العبد ومولاه،والمعاملات التي تتبدى في علاقة المرء بغيره من الناس؛لذا صرح ابن تيمية بأن الدين كله داخل في العبودية، ويدين لله معناه يعبد الله ويطيعه ويخضع له، ويدل على ذلك لما جاء جبريل فنزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – في صورة أعرابي وراح يسأله عن معاني الإسلام والإيمان والإحسان فكان جوابه:أما الإسلام فهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، وأما الإيمان فحدده في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والقدر خيره وشره،وأخيراً الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٦).

والإحسان هنا يشير إلى التميز والبحث عن الكمال،وهذا الحديث الشريف من الأهمية بمكان للصوفية؛ لأنه يعطي أبعاداً عديدة لمفهوم الإسلام تشمله بوجه عام،لذلك يجب فهمه بطريقة تتوافق مع تعدد المعاني التي يتضمنها بدرجاتها الثلاث"إسلام، إيمان، إحسان"وتقسيماتها الفرعية الكثيرة التي تذكرنا بمستويات فهم القرآن الكريم.(٧)

وتأسيساً على ذلك تصبح العبادة اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من أقوال أو أعمال على المستويين الظاهر والباطن،وهي أعظم ما يحصله الإنسان في دنياه.فالصلاة والصوم والزكاة والحج وصلة الرحم والوفاء بالعهد كلها من العبادات إلى جانب حب الله ومحبة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وخشيته والقصد بالرجوع والإنابة إليه والصبر على حكمه في قضائه وقدره على أية صورة كان، والتوكل عليه وحده ،

ورجاء رحمته، والخوف من عقابه، كلها كذلك من العبادات التي ينبغي على العبد أن يعمل على تحصيلها بتمامها وبالحد الذي حده الحق جل شأنه(٨).

العمل والعبادة لله إذاً عند الصوفية المحققين لابد فيه من كمال أدب الظاهر والباطن معاً، ولابد من إتيانها – العبادة – على الوجه الذي يليق بها لتكون بالتالي تعبيراً عن مقام العبد بين يدي الحق، ودليلاً أيضاً على حسن صلته بالخلق في الوقت نفسه(٩) .

غير أن الأمر لا يكون كذلك إلا إذا تحقق العبد بالإخلاص في العبادة لله تعالى وحده في ظاهره وباطنه إخلاصاً لا حد له، فالعبودية الحقة لا تصح إلا بابتغاء مرضاة الله دون سواه،وهو ما دل عليه قوله تعالى:"إنا أنزلنا الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين "(."الزمر:٢) وأكد عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء:"قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين".(الزمر:١١)

معنى ذلك أن العبادة الحقة بكافة أشكالها تتضمن الإخلاص لله والإقرار بربوبيته تعالى ووحدانيته التي هي وسم مستحق له وحده دون غيره، وهذا هو التوحيد أساس الرسالة المصطفوية،فإذا صدق العبد في طلب الله – جل شأنه – انعكس ذلك عليه ومن حوله،فتكون جميع أفعاله وحركاته ظاهرها وباطنها لا يريد من ورائها إلا الله وحده قائماً بعقله وعلمه على نفسه، وقلبه راعياً لهمه،قاصداً إلى الله – عز وجل – بجميع أمره،لا يفرح لمدح وثناء الخلق عليه وعلى فعله إذا اطلع عليه المخلوقون. فإن عارضه من ذلك شيء اتقاه بسرعة ولم يسكن إليه،لكن إذا أثنى عليه أحدهم حمد الله على ستره بما وفقه لعمل الخير الذي رآه العباد عليه.فلا شيء أحب إليه من الله – سبحانه – ومرضاته ولا يلتفت لسواه(١٠). وهو ما ثبت بقوله تعالى:"فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً".(الكهف:110).

فمن أراد التقرب من الله – عز وجل – يلزم نفسه بأنواع البر الظاهرة والباطنة،أما الظاهرة فهي مثل الصلاة والحج والجهاد والصوم والصدقة والزكاة وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الشعائر التوقيفية التي شرعها الشارع، وألزمنا بضرورة أدائها على النحو الذي قرره، وأما الباطنة منها فلأن متعلقها الجارحة الباطنة أي القلب، فتتمثل كما صرح المحاسبي في طاعة القلوب التي لا "يطلع عليها الإنس ولا الملائكة ولا يعلمها إلا علام الغيوب،فإن القليل من أعمال البر كثير إذا كان من القلوب."(١١)

بناء على ذلك؛ تتبدى حقيقة العبادات في أعظم صورها عند ذلك الجانب الروحي الذي تتحقق فيه المعرفة التامة بعظمة الله تعالى وجلاله وقدرته،وهو ما يورث في القلب المحبة له ولكل ما يحب، والهيبة لقدره ،والاستحياء منه، ومما يكره .

وهنا يتمثل الجانب الروحي من الدين والعبادة معاً ليتشكل بأبرز معانيه في أعمال القلوب التي قد تسمى بالمقامات والأحوال وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل محبة الله –عز وجل – ورسوله، واتباع سنته في كل قول وفعل،وكذلك التوكل على الله وإخلاص الدين له، والشكرعلى سائر نعمه التي لا تعد ولا تحصى،ثم الصبر على قضائه وقدره،والرضا به في حال التنعم والكرب،والخوف من عذابه،والرجاء له،فهذه الأعمال جميعها"واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين. " (١٢)

لذلك فرق الصوفية بين معاني الإسلام والإيمان والإحسا ن ودرجاتها السابق ذكرها،وأكدوا على الأخير منها باعتبارهم أهل الحقيقة الذين جمعوا بين ظاهر الدين وباطنه،وعنوا بتحصيل العبادات كافة من حيث هي رسوم وأوضاع، إلى جانب ما تشتمل عليه من دلالات روحية وأخلاقية . فهؤلاء الخاصة من عباده ألزموا أنفسهم

بفرائضه وشرائعه،وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – فتأدبوا بآدابه وآداب أصحابه،وعلموا أن لله مع الفرائض الظاهرة أخرى باطنة مثل تصحيح السرائر واستقامة الإرادة وصدق النية ونقاء الضمير من كل ما يبغضه المولى – عز وجل – والقصد والرجوع إليه بالإنابة، والتوبة بالقلب والجوارح عن كل ما سلف مما نهى الحق – جل شأنه – عنه.فما كان من"أعمال العبد من عمل ظاهر قوبل به من الباطن، فما صح ووافق عليه باطنه صلح،وقبل ظاهره، وما خالف وفسد باطنه ردت عليه أعماله الظاهرة – وإن كثرت – وخسر ظاهرها لفساد باطنها."(١٣) وهو ما دلت عليه النصوص الدينية فقال تعالى:"وذروا ظاهر الإثم وباطنه،إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون"(الأنعام:120)، وأكدته السنة العطرة،فقال صلى الله عليه وسلم:"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل إمريء ما نوى."(١٤)

ولما كان جوهر الدين في جانبه الروحاني،هو بعينه جوهر العبادة،توثقت العلاقة بين الدين والأخلاق فهما يتلازمان معاً بلا انفصال طالما أن معرفة أعمال القلوب وإتيانها ضرورة لابد منها في العبادات الشرعية،كما أن مقامي الإيمان والإحسان من الدين يشترطان كذلك الاعتقاد بالفرائض الظاهرة والباطنة وما يلزم عنهما من أعمال تنطق بهذا التلازم الضروري،وهو ما يتبدى بوضوح في الدلالات الأخلاقية للعبادات الشرعية التي تنعكس على علاقة الفرد بمن حوله وبالمجتمع ككل.

فلم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا وحض عليه ،ولا أماً من أمهات الصالحات إلا وبينها ثم أحياها بدعوته إليها.حتى صارت تلك السمة الأخلاقية روحاً سارية في جميع الشرائع الإلهية التي شرعها الله – سبحانه وتعالى– مثل احترام الدماء البشرية كلها،والحذر من التعرض للأعراض الإنسانية ، ولزوم الأنفس بالملكات الفاضلة من الصدق و الكرم والعفو والأمانة والعدل والتواضع والوفاء بالعهود والعفة والرحمة

بالضعيف ونصرة المظلوم والاعتراف لكل مخلوق بحقه، واستشعار الأخوة والتعاون بين الناس على البر والتقوى،والتناصح في الخير والشر، إلى غير ذلك من أصول مكارم الأخلاق.ذلك الروح هو" مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا. "(١٥)

وهو ما نبهت إليه النصوص الدينية فقال تعالى في وصف خلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذي هو لنا الأسوة الحسنة:"وإنك لعلى خلق عظيم"(القلم:4)،كما قال تعالى: "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين* الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين".(آل عمران:133،١٣٤)، كما أكدت عليه النصوص الحديثية،فقال – صلى الله عليه وسلم – :" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق."(١٦) فالدين والأخلاق يربط بينهما أوثق الصلات،بل إننا نشك كثيراً في إمكان وجود أخلاق منفصلة عن الدين.(١٧)

وإذا كان هذا شأن العبادات كافة بما تنطوي عليه من دلالات روحية وخلقية لا تقف عند أركانها الظاهرة فحسب بل تمتد إلى باطن العبد،فتصفي قلبه وتنقي سريرته وتصل ما بينه وبين الله – سبحانه وتعالى – ثم تطول لتصلح شأنه كله في سائر معاملاته مع الناس أجمعين. فحري بنا أن ننقل دفة حديثنا صوب الصلاة لنتبين كيف تحققت تلك المضامين الروحية والخلقية في هذه العبادة عند المحاسبي على وجه الخصوص؟ ولنبدأ ببيان الصلاة مفهومها وأهميتها .

ثانياً: الصلاة مفهومها وأهميتها:-

لاريب في فضل الصلاة وأهميتها بين سائر العبادات الشرعية،وتتجلى دلالة ذلك حين جاءت كركن ثالث من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وعلى رأس العبادات التالية قبل الزكاة وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وهي لهذا أول ما يسأل عنه العبد يوم

القيامة،فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر أعماله،وإن جاءت ناقصة ردت عليه وسائر عمله.لذلك كان جواب النبي – صلى الله عليه وسلم – عن أفضل الأعمال وأزكاها ما هو؟ قوله:الصلاة لمواقيتها.

ولا عجب في ذلك فقد قال – تعالى– في كتابه الكريم:" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً"(الفتح:29)فاختار لنفسه أصحابه – صلوات الله عليه – ثم اختار لأصحابه "الصلاة" فجعلها وصفهم في كل الكتب السماوية،وهو ما يدل على أن الصلاة أشرف الأعمال.(١٨)

بالإضافة إلى ذلك،فإن الصلاة في الإسلام تعد علامة فارقة ونقطة فاصلة ما بين الإيمان والشرك، والمواظبة على القيام بها مستوفاة بعد معرفة أحكامها بالوجه الأتم تدخل صاحبها في زمرة المؤمنين القانتين،والتقصير فيها أو الغفلة عنها يخرجه أو يكاد من حد الإيمان ويجمعه بأهل الشرك والكفر ،وهوما حذر منه خاتم المرسلين – صلى الله عليه وسلم – بقوله:" إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة".(١٩)

ولا يفوتنا أن ننوه بأن الصلاة في اللغة جاءت بمعنى الذكر والانقياد، وتشير للعبادة المخصوصة التي تطلق على أحكام معتادة. وقد أمر بها الحق – تعالى – على سبيل الإقامة فقال سبحانه:" وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين"(البقرة: ٤٣) وفي قوله جل شأنه : "أقيموا" دلالة على ضرورة إتيانها على وجه الكمال كما شرعها الحق بكافة حدودها وأركانها وشرائطها الظاهرة والباطنة ، فهي عبادة يجد فيها العبد نفسه طريق الحق من البداية إلى النهاية، وتتكشف فيها وعبر أركانها معاني الخشوع والخضوع والاستسلام والعبودية لله – تعالى – وحده في كل وقت.(٢٠)

؛ لذا يعتقد الصوفية ان الصلاة بمثابة دعوة من الله إلى مأدبة ثرية للروح،وفقدان الصلاة كتفويت لهذه المأدبة،فأثنائها يرفع الحق الحجاب ويفتح أبوابه حتى يقف عبده أمامه مناجياً،كما تخلق الصلاة علاقة خاصة جداً بين المصلي وربه؛ لأنها عتبة الدخول عند حضرة الله سبحانه وتعالى.(٢١)

من هنا كانت الصلاة قرة عين المحبين ولذة أرواح الموحدين، والرحمة المهداة من قبله سبحانه إلى عباده تفضلاً منه عليهم،فتعبد بها القلب والجوارح معاً ،وحظ القلب منها أوفر وأكمل،وهي مأدبة وغيث.فلما امتحن الله – سبحانه – الخلق بأن ركب في طبيعتهم الميل للشهوات وأسبابها،اقتضت تمام رحمته، وإحسانه عليهم، بأن أمرهم بالصلاة كمأدبة جمعت إليها كافة الألوان والتحف والعطايا،ودعاهم لها كل يوم خمس مرات في أوقات معلومة،وجعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة عظيمة، ومنفعة شريفة لا يدركها إلا أهلها،وبهذا تكمل لذة العباد من المصلين بكل لون من ألوان العبودية لله – تعالى – وحده،وههنا تكتمل كرامتهم بعد أن يكرمهم مولاهم في عبوديته بكل صنف من أصناف الكرامة،ويصبح كل فعل من أفعالهم أثناء صلاتهم مكفراً لمذموم كرهوه،ويثيبهم به نوراً وقوة في قلوبهم، وجوارحهم في الدنيا، ونعيماً في الآخرة.(٢٢)

فإذا كان هذا حال الصوفية عند العبادات الشرعية بوجه عام، والصلاة بوجه خاص، فكيف برزت تلك الدلالات الروحية والخلقية لعبادة الصلاة عند المحاسبي؟ وكيف تضافرت المضامين الباطنة من دقائقها لتؤكد على الكمال الديني، ودوام التقرب من الله بحفظ الوصل بين المصلي والله – سبحانه وتعالى – وتنعكس بالإيجاب على جانبه الأخلاقي في معاملاته مع الخلق ؟

ثالثاً:الدلالات الروحية والخلقية للصلاة عند المحاسبي: –

أكد المحاسبي على فضل الصلاة وضرورتها بما عرف من قول بعض العلماء إنما سميت "بالصلاة" لأنها صلة بين العبد وبين الله – تعالى –حتى أنه يجعل الدخول في الصلاة بمثابة الدخول إلى حضرة الله – سبحانه جل شأنه – والوقوف بين يديه لدعائه ومناجاته،فكل ما يفعله المصلي من قراءة ودعاء وذكر فهو مناج لربه جل وعز.(٢٣)

لهذا نصح المحاسبي العبد القائم إلى الصلاة بقوله"قم بين يديه في صلاتك جملة" (٢٤) أي كن أيها المصلي على وعي بحقيقة ما أنت مقبل عليه،فأنت في صلاتك تصبح في حضرة الله – سبحانه جل شأنه – تناجيه وتسأله وتطلب رضوانه وترجو غفرانه، فكن بين يدي مولاك الذي قصدت إليه طلباً للوصل به في أثناء صلاتك بتمامك وكليتك، يستوي في ذلك جوارحك الظاهرة وما يصدر عنها من أوضاع ورسوم،وباطنك من عقلك وقلبك ونفسك وسريرتك وما ينطوي عليه من أفعال يسميها المحاسبي أعمال القلوب. تلك التي تجتمع فيما بينها لتحقيق تمام القرب من الله – سبحانه – وكمال الوصل به.إذ بدون حضور ظاهر العبد وباطنه معاً عند إقامة الصلاة لن يتحقق بالغاية التي أرداها لنفسه،وتصبح صلاته ناقصة، ويرتد أمر قبولها لمشيئة الله تعالى وحده.

ولما كان ذلك كذلك،فقدعرف المحاسبي خطورة أمر الصلاة وعظيم شأنها في حياة الخلق،وحرص على الإبانة عن الطريق القويم الذي ينبغي للعبد أن يسلكه لكي يتحقق بكافة أحكامها الظاهرة والباطنة على وجه الكمال، ويضمن بذلك إصابة الحق فيها، والنجاة بها.

حصر المحاسبي ذلك الطريق في ثلاث مراحل لكل مرحلة منها أركانها ودلالالتها الروحية والخلقية، وجاءت على النحو التالي:

١- المشي إلى الصلاة.

٢- الدخول في الصلاة .

٣- الفراغ من الصلاة .

فحري بنا أن ننتقل للكلام عن كل مرحلة منها، والكشف عما تنطوي عليه من مضامين روحية وخلقية على وجه التفصيل.

١- الدلالات الروحية والخلقية للمشي إلى الصلاة :

أول ما نلتفت إليه عند تأمل ما تركه لنا المحاسبي بشأن التوجه إلى الصلاة نجده يحرص تمام الحرص على الالتزام بأحكام الصلاة وحدودها، في جانبها الظاهر كما جاء في النصوص الدينية من قرآن وسنة، وما كان يعرف عن الصحابة والتابعين، وأهل السلف بالإضافة إلى جانبها الباطني بما ينطوي عليه من مضامين خلقية وروحية ،فيقول :"عليك أن تتقدم للصلاة بأربع: بالطهر بالماء متوضئاً لها وطهارة الجسد والثوب والبقعة التي تصلي فيها والنية والعزم على الصلاة رجاء ثواب الله – تعالى – وخوف عقابه وتأدية فرضه."(٢٥)

وعلى ذلك؛ فأول ما يبدأ به الماشي للصلاة عند المحاسبي النية، فهي تسبق الوضوء، حيث ينوي العبد نية الوضوء للصلاة، ويسمي باسم الله تعالى ، والنية عنده كما حددها هي الإرادة أي إرادة العبد أن يعمل عملاً ما لمعنى ما، فإذا أراد فعل ذلك العمل لهذا المعنى فتلك الإرادة تعد نية ، والنية هنا قد تكون لله – تعالى – أو لغيره، فقد تكون النية لله – عز وجل – وهو المطلوب لكمال النية وتمامها –أو تكون لغاية أو

منفعة دنيوية، وهو ما يثبت بقوله: فالنية قد تصبح من الماشي للصلاة"إرادة منه أن يصلي ليؤجر وأن يرضي الله – عز وجل – بها عنه،أو إرادة أن يحمد ويثنى عليه. " (٢٦)

ومن هذا المنطلق يربط المحاسبي فاعلية العمل وهو هنا إقامة الصلاة على وجه التمام، بالنية الصادقة التي يكون عليها العبد،فمن أراد بصلاته الله – جل شأنه – وحده فقد فلح،ومن طلب سواه من أمور الدنيا فقد خاب، وهو في قوله السابق يوافق ما أكده النبي – عليه أفضل الصلاة والسلام – بقوله:" إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى".(٢٧)

لكن التساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف يصدق العبد في نيته،فلا يطلب بصلاته إلا الله – عز وجل – وحده دون سواه ؟

لقد وضع المحاسبي أساساً إن أتم العبد تحصيله كان ذلك سبباً في خلوص النية لمولاه في صلاته، وسائر ما يقوم به من أعمال البر.هذا الأصل هو المحك الأول، ورأس كل خير. بدونه لن يقدر العبد على تصحيح نيته على وجه الكمال، فتبطل ويبطل معها كل ما يتبعها من أركان الصلاة، ألا وهو المعرفة بالله تعالى .

فأول ما أراد الله من عموم خلقه كانت معرفته،بل إن معرفته – جل شأنه – هي سر وجود عالم الكون بما فيه من مخلوقات شتى، وقد طالب العباد بمعرفته بوجوه عدة،مثل خلقه للعالم، وتدبيره في خلقه، ومن قدرته على الخلق، وكذلك بتكفله بأرزاق من خلق من عباده،ومن كونه المحيي والمميت، فإليه وحده القدرة على إماتة الخلق أو إحيائهم ، ألا له الخلق والأمر،ثم أراد منهم بعد معرفته على الوجه الذي عرفوه منه

أن"يريدوه بكل ما عملوا من أعمال البر ولا يروا غيره،ولا يطلبون الثواب إلا منه،فلو كان يمكن أن يكون قبل المعرفة شيء لكانت الإرادة قبل المعرفة. "(٢٨)

بناء على ذلك؛ تصبح المعرفة عند المحاسبي ضرورة لابد منها في كل عمل،وتكون بداية وأصل كل شيء،ثم تجيء الإرادة وهي منها، ومعناها تحقيق الترك، أو تحقيق العمل والأخذ، والترك، والإعطاء، والمنح، والحب، والكره، وهكذا في سائر الأعمال. فالمعرفة بهذا تصبح "ولية عقد منافع أهل الأعمال في أعمالهم." (٢٩)

ويكمن أهمية قول المحاسبي في تلازم العلاقة بين الإخلاص في العمل و معرفته.فالناس عنده يتواضعون لله – عز وجل – بقدر معرفتهم به،ويشكرونه على عظيم نعمه التي لا تعد ولا تحصى أيضاً بفضل معرفته،ويرجون ثواب ربهم ويخافون عقابه،ويصبرون على طاعته،ويرضون بقضائه وقدره،حتى المحبة عنده تلي المعرفة،فيحبون ما أحب، ويبغضون ما بغض،كل ذلك مشروط بمعرفته سبحانه وتعالى،فمن"فاتته المعرفة بالله دخله النقص في جميع ما ذكرنا على حسب ما فاته من المعرفة" .(٣٠)

ومن هنا يمكننا القول أن العلاقة بين المعرفة بالله، و طلبه وحده، والإخلاص له في سائر أعمال البر، وعلى رأسها الصلاة علاقة طردية، تزداد وتنقص بحسب ما رزق العبد من معرفة أو لا،فإذا كانت معرفة الماشي للصلاة بربه معرفة تامة، جاءت نيته بالصلاة لله وحده تامة أيضاً، لا يدخلها الشك، ولا تقربها الريبة.

وبطبيعة الحال، إذا تحقق العبد بمعرفة الله تعالى،وأنه الله الواحد الأحد، المحيي المميت، مالك الملك الفعال لما يريد،علم أنه ما هو إلا عبد ضعيف مربوب، يقف في حضرة معبوده الذي لا نجاة له إلا بطاعته، ولزوم عبوديته، وتقواه في كل ما أمر ونهي،

حيث يدرك سبب خلقه، وسر وجوده في هذه الدنيا الفانية،وأنه بالتالي لم يخلق عبثاً،ولم يترك سدى، لكنه خلق ووضع في دار الاختبار ليطيع الله – سبحانه وتعالى – ،ويصبح من السعداء،أو يخالفه وينقلب إلى الأشقياء.

فإذا عرف العبد أنه عبد مربوب، عرف قدر نفسه على حقيقتها، وأدرك أن سر نجاتها يكمن في طاعة ربها ، وأداء ما افترضه عليها من فرائض،عندئذ يؤدبها بآداب الله وتتخلق بأخلاقه الشريفة من صدق وأمانة وكرم وعفو ورحمة وتواضع وعطف ومحبة الخير وعدل وغيرها،وهو ما أسماه محاسبة النفس .

وتجمع أقوال المحاسبي على أن محاسبة النفس هي التثبت في جميع الأحوال قبل الفعل والترك،من العقد بالضمير،أو الفعل بالجارحة، ومعناه الرقابة الذاتية للنفس في كل ما يصدر عنها.(٣١) الأمر الذي يقضي بأن تتلبس النفس بكل مكارم الأخلاق التي دعا إليها الدين،وجاءت على لسان رسوله الكريم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه وجعله قدوة حسنة لعموم المسلمين يتبعون سنته ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.وبهذا يتقدم العلم بالنفس العمل على طاعة مولاه وتحقيق عبوديته لله – تعالى – وحده دون سواه،كما تنعكس كذلك على حياته الخلقية في معاملاته مع من حوله، فالدليل على صدق طاعة العبد"العلم،ثم العمل بأمره ونهيه في مواضعه وعلله وأسبابه. "(٣٢)

وإذا كان المحاسبي قد قرن المعرفة بالله، بإقامة الصلاة على وجه الكمال المنوط به،فلا غرابة إن وجدنا الفيلسوف ابن سينا(ت:428هجرية) من بعده قد قصر حقيقة الصلاة على العلم بالله – تعالى – بوحدانيته ووجوب وجوده، وتنزه ذاته، وتقديس صفاته، والإخلاص في صلاته.وقد عني بالإخلاص ههنا أن يعلم المصلي صفات الله – تعالى – بوجه لا يبقي للكثرة فيه مشرعاً، ولا للإضافة فيه منزع، فمن لزم ذلك أخلص، وصلى وما ضل وما غوى،ومن لم يفعل فقد افترى وكذب وعصى .ولهذا يعرف ابن سينا الصلاة

بأنها التعبد للعلة الأولى والمعبود الأعظم؛ ليجعل التعبد ههنا يعني المعرفة بالله،أو واجب الوجود على حد قوله؛ومن ثم يتأول قوله سبحانه في علة الخلق "ليعبدون"بكلمة"ليعرفون".وتصبح العبادة عنده في مجملها هي" المعرفة أي عرفان واجب الوجود، وعلمه بالسر الصافي والقلب النقي والنفس الفارغة." (٣٣)

ولما كانت الصلاة عبادة – بل هي أجل وأعظم العبادات على الإطلاق – فقد اشترط المحاسبي على المصلي تحري الإخلاص في عمله فيها، فالإخلاص لله – جل شأنه – كما هو معلوم واجب في كل الأعمال؛لأن الله – عز وجل – يقول:"وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين".(البينة: ٥). ومن داخل عمله رياء، أو إعجاب، أو طلب ثناء، ومدح الناس، أو كراهية مذمتهم، فهذا غير مخلص لله في عمله،والله لا يقبل "إلا ما كان خالصاً".(٣٤) وما قصده المحاسبي بالإخلاص يشمل ظاهر العبد وباطنه،ومن ثم ينصح المصلي بضرورة أن يكون "عمله فيها إخلاص القلب والجوارح (٣٥)".

ومحك الإخلاص ومعياره عند المحاسبي يتمثل في صدق الإرادة ؛لأن الإرادة عنده إرادتان:إحداهما للدنيا وهي رأس كل فتنة،وأصل تضييع حقوق الله،والأخرى للآخرة.فالصدق والإخلاص لا ينفك عن إرادة العبد من وراء عمله وجه الله – عز وجل – وحده،وليس للدنيا فيه مدخل،وعكسه الرياء الذي يتحقق بإرادة الدنيا أي إرادة العبد بطاعته العباد وزينة الحياة الدنيا.(٣٦)

فإذا كان ذلك كذلك؛ فلا تصح الصلاة دون صدق النية منذ بدئها، وصحة إرادة الله والإخلاص له في كل أركانها، وأحكامها الظاهرة والباطنة،فيعرف العبد، ويصدق في قلبه وجوارحه أنه ما أراد بصلاته إلا الله دون سواه؛ رغبة في الفوز بقربه، ونيل وصله ومحبته، والتحقق بعبوديته التي بها وحدها كمال إنسانيته، وشرفه على مخلوقاته كافة.

والحق أن الصدق والإخلاص هما معاً أصل كل حال شريف،فمن الصدق تتشعب أحوال الصبر والقناعة والزهد والرضا والأنس بالله والشوق له .وعن الإخلاص يتشعب اليقين والخوف والرجاء والتعظيم لله والإجلال له والمحبة والحياء منه، وشدة كل حال أو ضعفه يكون"بحسب إيمان العبد ومعرفته. "(٣٧)

وتتجلى أهمية الإخلاص لله – تعالى – في الصلاة عند المحاسبي بدلالته الروحية على إيمان المصلي وتعظيمه لمعبوده، ومعرفته بقلبه لربه بجلال قدره وعلوه ورفعته،وأنه وحده الأحق بتعظيمه بما افترض من عبادات،فما أراد منها سوى الحق – تعالى – وحده لا شريك له،كما يترجم العبد بجوارحه إخلاصه لله بالمسارعة في أعمال البر .وهو بهذا يتضمن تحقيق التوحيد بالمعنى الباطني؛لأن الرياء وهو نقيض الإخلاص يستدعي الشريك لله في الأعمال،وهو ما يتنافى وأصل التوحيد، يثبت هذا قوله:" فلا يسمى المخلص مخلصاً حتى يفرد الله – عز وجل – من الأشباه والأنداد،ثم إرادته الله بإقامة التوحيد،وجمع الهمم له وبه في النفل والفرض."(٣٨) وهنا يستشهد المحاسبي بما عرف عن سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام من قوله رواية عن الله – جل شأنه – :" أنا أغنى الشركاء عن الشرك،من عمل عملاً أشرك فيه معي تركته وشركه. " (٣٩)

فإذا صحح العبد نيته، وصدق في قصده بصلاته الله – تعالى – وحده، والإخلاص له،راجياً عظيم فضله، وطلب رضاه، وتمام طاعته فيما افترضه من أوامر إلهية، سمى باسم الله – تعالى – وانتقل إلى الركن الثاني من أركان المشي إلى الصلاة ألا وهو الطهارة.

من البدهي أن الطهارة الظاهرة المتمثلة في نظافة الجسد بكافة أعضائه، مع الثياب والمنطقة المناط بها إقامة الصلاة، ركناً ضرورياً من أركان الصلاة التي لا تصح على وجه التمام، إلا إذا تهيأ المصلي للقاء ربه – سبحانه – بها ومن خلالها، لكن

الصوفية بوجه عام، والمحاسبي بوجه خاص، لا يقف عند هذا المعنى الظاهر البسيط للطهارة، بل يتخطاه إلى المعنى الباطن.

وههنا تتبين بوضوح الدلالة الأخلاقية للطهارة في ركن الوضوء عنده.فالطهارة الباطنة متعلقها الجوارح ذاتها، بالإضافة إلى القلب والنفس، إذ من الضروري للمصلي أن يتفقد جوارحه الظاهرة عند تطهيرها بالماء،ويتورع عن ذنوبها، فيغض البصرعما حُرم عليه،وينصت عن الغيبة،ولا يتقدم بقدمه إلى ما لم يحله الله،ولا تمتد يده إلى ممنوع،وهكذا في سائر الجوارح الظاهرة،أما قلبه فلا بد من تصفيته عن كلما علق به من شواغل تحول بينه وبين ربه الذي يقصد وصله، ويرجو لقائه، من تعزز وتكبر وأنفة وزهو وهوى،وأما النفس فهي عدو العبد على الدوام، لطبيعتها المتطلبة، وأخلاقها الرديئة التي تقف بينه وربه، فتحجبه عن مولاه، وتشغله بأمور الدنيا والمعاش.

وإذا تطهر باطن العبد شُفي عن أمراض النفوس من الحقد، والغل، والحسد، والشره، والطمع، والبخل، وحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، وتبدلت أخلاقه السيئة بكل خلق محمود،وصلح قلبه وصفى. وأصبح أهلاً بظاهره وباطنه، بجسده، وقلبه للقاء ربه، ومناجاة مولاه.

ولاشك أن الطهارة بجانبيها الظاهري والباطني، كما حددها المحاسبي هي التي تحقق للعبد مقامي الإيمان والإحسان السابق ذكرهما،أما الطهارة الظاهرة لا تتخطى مقام الإسلام فحسب؛ لأنها تقف عند ظاهر الجسد، وجوارح البدن،بينما جل ما يطلبه المحاسبي من تحقيق تمام القرب من الله، والتحقق بعبوديته الكاملة، فلا ينفك فيه باطن العبد عن ظاهره،بل إن تمام الظاهر هو من نتاج كمال الباطن،ولا فائدة ترجى من زينة الظاهر بينما الخراب يسكن باطنه،وهو في هذا يتفق مع ما جاء به النص الشرعي بقوله

– عز وجل – :"وذروا ظاهر الإثم وباطنه."(الأنعام: 120) وكذلك قوله تعالى:"يا أيها المدثر قم فأنذر وثيابك فطهر"(المدثر :١،٤)

والحق أن حرص المحاسبي على الجمع بين طهارة الجوارح – كما دلت عليها علوم الفقهاء – من ظاهر الشريعة، مع طهارة القلوب عند أهل الحقيقة، يعكس منهجه الصوفي السني المعتدل الذي يجل الشريعة بأحكامها،ولا يتجاوزها لباطن يخالفها،بل يجعل المعرفة بظاهر العلوم الشرعية ضرورة، وباب يدلف منه الصوفي الصادق إلى أنوار الحقيقة،وهو ما يثبته قوله:"كل أمرلاح لك ضوءه بمنهاج الحق،فاعرضه على الكتاب والسنة والآداب الصالحة،ولا تعتقدن باطناً من الأدب ينقضه عليك ظاهر من العلم ".(٤٠)

الأمر عينه أكد عليه من بعده تلميذه المقرب الجنيد(٢٩٨ هجرية) حين أشار إلى طريقة الصوفية بقوله : " من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة " وقصد بقوله هذا الأمر "التصوف. " (٤١)

وهو ما أيده كذلك الطوسي(ت:٣٧٨ هجرية) لما صرح بأن أصول مذهب أهل الحقيقة الذي صح عنده، المؤيد المنوط بمتابعة كتاب الله،والاقتداء بسنة رسوله – عليه أفضل الصلاة والسلام–والتخلق بأخلاق الصحابة والتابعين،والتأدب بآداب عباد الله الصالحين.وقد تقيد هو وأصحابه من قبل وبعد بالكتاب والأثر بالحجة"ليحق الحق ويبطل الباطل،ويُعرف الجد من الهزل والصحيح من السقيم. "(٤٢)

ولهذا كانت الشريعة مطلباً ضرورياً عند القشيري(ت:٤٦٥ هجرية) شأنه شأن كل صوفي معتدل، أو على نحو أدق كل مؤمن كامل في إيمانه. وإذا كانت الشريعة هي نقطة البدء وعدة الأمر؛ فلأنها وسيلته للعبور إلي طلب الحقيقة التي ينشدها ، فهما

معاً – نعني الشريعة والحقيقة – من الأهمية بمكان للوصول إلى غايته، ومنتهاه وهي معرفة الله – تعالى – وعبادته العبادة التي تليق بعبوديته،ومن ثم "فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول،وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول". (٤٣)

وعودة إلى المحاسبي سنجده يقرن طهارة الجسد والقلب، كضرورة لابد منها لقيام الصلاة على أكمل وجه في الدنيا، بطهارة الإنسان ظاهره وباطنه، كمقدمة لازمة لفتح باب الجنة أمام السعداء في الدار الآخرة،مما يكشف عن أهمية الطهارة في مجملها، الروحية والجسدية معاً في طريق الوصول إلى الحق، والفوز بالسعادة في جنة عرضها السماوات والأرض ،يثبت هذا قوله:"حتى إذا استكملت طهارة القلب والبدن،واستكمل أحباء الله ذلك معك،والله مطلع يراك ويراهم أمر مولاك الجواد المتحنن خزانة الجنة من الملائكة..أن يفتحوا باب جنته لأوليائه،فانحدروا من دارها وبادروا في ساحاتها..فطار قلبك سرورا وامتلأت فرحاً". (٤٤)

فإذا كانت الطهارة بشقيها الظاهرة، والباطنة على هذا القدر من الخطورة،حتى يجعلها المحاسبي ضرورة للعبد في الدنيا والآخرة،ومفتاح مروره إلى دار الفوز العظيم،فإن ذلك يرتد إلى قناعته بأمر التطهير في ذاته الذي يحده بقوله:" والتطهيرهو الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير. "(٤٥)

ودلالة قول المحاسبى تبدو في أهمية التطهيركأداة انتقال حاسمة من كل عمل خبيث، ليصبح أساسا لما هو خير في ذاته،فقد يسقط البناء من أعلاه إلى أسفله، ويظل الأساس قائماً لا يتزحزح،ولا يمكن أن يسقط الأساس، ويظل البناء ثابتاً.فمن غفل عن التطهر قبل إتيان العمل،فإن الشر عندئذ قد يحول بينه وبين منفعة الخير،ويصبح – بالتالى– ترك الشر بالتطهر أولى بالعبد فعله،ثم يطلب الخير بعده. (٤٦) ومن ثم فقد أكد المحاسبي على ضرورة تحقق المصلي بالطهارة الظاهرة والباطنة، بكل ما تشتمل عليه من مضامين

أخلاقية عند الاستعداد والمشي إلى الصلاة، وجاوز ذلك ليجعلها نصف الإيمان،وهو في هذا يتفق مع ما جاء في النصوص الحديثية،فقد روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله:" الطهور شطر الإيمان."(٤٧)

وعلى هذا النحو يربط المحاسبي بين الطهارة – كركن من أركان الصلاة – واستكمالها على مستوى الظاهر والباطن، وبين نية التوبة من كافة الذنوب ؛ ليجمع المصلي بذلك بين طهرالتوبة،وطهرالوضوء؛لأن الله جمعهما معاً ، وأشار إلى محبته الخالصة لصاحبهما،فقال سبحانه:" إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين"(البقرة: 222)

وتتبدى جدة وطرافة آراء المحاسبي بشأن الصلاة،فيما اشترطه على الماشي إليها من استعدادات، تهيئه لتحصيل الصلاة على وجه الكمال الذي أراده وقت الدخول فيها. فإلى جانب ما ذكره قبل ذلك من النية، والطهارة، والتوبة، والمعرفة،لابد للمصلي من أن يتيقظ ويتأهب للصلاة عند حضورها،وقبل دخوله فيها ولو بطرفة يمين، يذكر فيها الله كثيراً،ويتذكر أمرالآخرة بقلبه لا بلسانه فحسب،ودلالة ذلك تكمن في أن القلب "يشتغل بما كان مشغولاً به قبلها ".(٤٨)

وبذلك أمر العلماء – على حد قول المحاسبي – حتى عرف عن الأوزاعي – وكان إمام الشام في القرن الثاني الهجري(ت:157هجرية)– قوله: كان المسلمون الأوائل يحبون التفكر في أمر المعاد عند الحضور للصلاة؛لأنهم عرفوا أنه قلما قام العبد للصلاة وقلبه مشغول بشيء إلا وقد غلبه في صلاته.(٤٩)

فالفكرة لها خطورتها فيما يتعلق بثمارها على حال صاحبها،وهي في الغالب تجييء على عدة أوجه:فكرة في آيات الله وعلاماته، وينتج عنها المعرفة به،وفكرة في

آلاء الله وفيض نعمه،ويتولد عنها الرغبة في الطاعة، وموافقة الله في كل ما يحب ويرضى،ومنها أيضاً تكون المحبة، إذ النفس تميل دوماً لمحسنها، وفكرة في وعيد الله، وشديد عقابه، وينبثق منها الرهبة والخوف من المخالفة. (٥٠)

ويبدو أن قناعة المحاسبي بهذا الأمر، ودوره في إصلاح حال المصلي، وتيقظ قلبه لما هو مقبل عليه، كان سبباً في كتابة بعض المصنفات التي أعدها خصيصاً لتناول أمر المعاد، والدار الآخرة، والحساب، والثواب والعقاب،وأهمها كتاب التوهم،وكتاب البعث والنشور ،فقد توهم المحاسبي في كتابه ما يجري يوم الحشر العظيم بكافة تفصيلاته الدقيقة،وهو ما يصلح ليكون عدة للمصلي قبل الدخول في الصلاة،بما فيه من ذكر لأهوال ذلك اليوم، تبعث في القلب الخوف والوجل، فتجعله يخشع في صلاته، ويجل ربه خوفاً من الجحيم،وطمعاً في الجنان،يكفيه هنا قوله:"ثم يرفع مالك نظره إلى أهل الكبائر ،وهو على الصراط والكلاليب قد تعلقت بهم فيقول الزبانية:مالكم تخلفتم عن نبيكم ولم تجوزوا على الصراط؟ فيقولون:نحن أقوام أمرنا بالصلاة ففرطنا ولحقوق الله ضيعنا."(٥١)

كما ينبغي على العبد إذا أراد أن يقيم صلاته على وجه التمام، أن يستعين بما يعينه على الاشتغال بصلاته، والفهم فيها دون سهو أو غفلة، وهما معاً ضد الذكر والمناجاة، أي المعنى اللغوي لحقيقة الصلاة وجوهرها،وهو ما يتحقق عندما يباعد بينه، وما قد يشغل بصره ،فيغفل قلبه عن حاله وقت صلاته،وهو ما أدركه العلماء، وعملوا به، فانقطعوا عن كل شغل بالدنيا قد يحول بينهم، وبين يقظة القلب، وخشوعه لله – تعالى –وإجلاله له وتعظيمه إياه،وهي مضامين روحية، يلزم أن يتحقق بها المصلي عند الدخول في الصلاة.

وآخر ما يقوم به الماشي إلى الصلاة بعد استكمال كل ما سبق ذكره،هو الشهادة بأثر الوضوء،حيث يحب المحاسبي أن يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثلاث مرات بعد الفراغ من الوضوء واستكمال أحكامه على وجه الكمال.وفي الشهادة بعد تحصيل الطهارة الحسية والمعنوية،كل معاني الفرح والسعادة وعظيم الفوز بسعادة الآخرة.(٥٢)

ونافلة القول لقد أصاب المحاسبي فيما أعده من عدة، رأى في الماشي إلى الصلاة ضرورة التحلي بها،وبدونها لن يقدر العبد على الانتقال في أمان إلى المرحلة الثانية، أعني الدخول إلى الصلاة،فهذه المرحلة تشبه باب البيت،فإن أراد صاحب البيت أن يدخل بيته، فلا بد من المرور ببابه أولا.

فحري بنا أن ننتقل إلى المرحلة الثانية من الصلاة ودلالاتها الروحية والخلقية عند المحاسبي.

٢- الدلالات الروحية والخلقية للدخول في الصلاة:

إذا كان المحاسبي قد ألزم نفسه وغيره متابعة النصوص الشرعية،جنباً إلى جنب مع ما رآه من مضامين روحية وخلقية واجبة التحقق على وجه التمام عند كلامه في أركان ودقائق المشي إلى الصلاة،كذلك يفعل الآن وفق ما حدده من آداب وأحكام واجبة للعبد عند دخوله في الصلاة،فيقول:"ثم أربع عليك أن تدخل لها فيها:توجه القبلة وتحريها، والعزم على ترك ما لا يجوز في الصلاة من أعمال الدنيا وطلب منافعها،ورفع اليدين،والتكبير عند الدخول،ترفعهما وأنت متوجه بباطن الكفين إلى القبلة، مع رفع اليدين وهو الإحرام. "(٥٣)

فالدخول إلى الصلاة يبدأ بالتوجه نحو القبلة الشرعية للمصلي،وههنا تتجدد نية العبد بصدق التوجه في طلب لقاء الله – سبحانه وتعالى – وحده لا غير،ويعزم على ترك طلب كل الأمورالدنيوية، والمصالح الشخصية، وعندئذ تصبح هذه البقعة المحددة للصلاة ليست مجرد مساحة مادية معينة، يلتقي فيها المصلي بمولاه – سبحانه جل شأنه – وعز أن يحل في مكان أو تحيط به الجهات والأركان، لقوله تعالى:" ولله المشرق والمغرب،فأينما تولوا فثم وجه الله"(البقرة:115)

لكنها استحضار في القلب أولاً، وقبل أي شيء آخر ووعي ؛لأنه الآن – وفي ذلك الوقت الموقوت – يلبي نداء ربه،ويكون في حضرة الله – سبحانه وتعالى – يناجيه، ويذكره، ويدعوه، ويرجو لقاءه، وعظيم فضله،ثم يرفع المصلي يديه بالتكبير وهو الإحرام، الذي يراه المحاسبي يحرم على العبد كل شيء كان قد أحله الله له في دنياه،كالتمتع بالملذات والمشتهيات الحسية، من مأكل أو مشرب، وغيرها عند الدخول في الصلاة،فتبقى"تتحرم بالصلاة عما نهيت أن تفعله فيها."(٥٤)

وإذا كان المحاسبي قد ابتدأ الدخول في الصلاة بتوجه المصلي نحو القبلة، فهويشترط عليه أن يقوم وهو عازم على طلب الله – تعالى – معظم له،ذاكر لعظيم قدره،مجل له وهو يناجيه،يدعوه ويرجوه أن يفيده في مناجاته بما فيه نجاته، وصلاح أمره في معاشه وآخرته،وهو في ذلك كله يكون مقبلاً على الله – عز شأنه – بكليته، ليس فقط بجسده بل بوجهه، وقلبه، وهواه كذلك،وهو ما يثبت بقوله:" واذكر عند دخولك فيها عظيم قدر من تناجيه،عازماً على ترك ما ينقضها ".(٥٥)

فإذا حرص العبد منذ بدء الصلاة على الإجلال والتعظيم لشأنه سبحانه،وأنه ما قام للصلاة إلا تلبية لأمر مولاه، وسيده ونية طاعته لمعبوده فيما أمر به، ولزومه لمقام عبوديته، وبعد عن كل ما خالف ذلك، أو أنقصه فاز بثمرة صلاته، كما جاء في قول

النبي – صلى الله عليه وسلم – :"إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله – عز وجل – انصرف كما ولدته أمه. "(٥٦)

كما يشترط المحاسبي على المصلي عند الدخول في الصلاة ضرورة تفهم كل ما يجري على لسانه من ذكر، أو أدعية، أو آيات قرانية، فيها ما فيها من أمر ونهي ووعد ووعيد،وتدرك أنك مدعو من قبل ربك كي تخافه، فتبادر بطاعته وامتثال أمره،فإن فعلت فقد وعدك بالجزاء العظيم،وإن عصيت وخالفت، فلك العقاب الشديد،ولكي يقدر المصلي على التحقق بتلك الأمور التي أوجبها المحاسبي، عليه الحرص على استحضار كل من العقل والقلب في صلاته، فلا غنى له عنهما طوال الصلاة من بدايتها حتى النهاية، فتكلف "إحضار عقلك فيما تتلو دون ما سواه،وكذلك فيما تعمل من ذكر وتسبيح وتشهد وركوع وسجود..يتلو لسانك ويفسر قلبك."(٥٧)

ودلالة قول المحاسبي تكشف عن أهمية ثلاث مسائل يلزم تحققها عند الصلاة، لتستوفي أركانها الظاهرة، ودقائقها والباطنة، وهي حضورالعقل، حضور القلب، تلاوة وترتيل آيات الذكر الحكيم . فلنعرج على كل مسألة منها لنتبين حقيقتها، وما تنطوي عليه من دلالات روحية وأخلاقية.

حضور العقل:

العقل عند المحاسبي غريزة أودعها الله في أكثر خلقه من الممتحنين بدنياه، وبه وحده أقام على البالغين منهم الحجة لما جعله مناط التكليف، فخاطبهم من جانب عقولهم بسائر التكاليف الشرعية، وهو لا يعرف إلا بأفعاله في القلب والجوارح،وعنه تكون المعرفة.ومن ثم "يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول."(٥٨)

ولما كان التعظيم لله – تعالى – وإجلاله أكثر المضامين الروحية المتحققة في الصلاة عند المحاسبي اهتماماً وترديداً وتأكيداً من قبله،فقد اقترنت هذه الدلالة بالعقل ومعناه لديه؛ لأن العقل عنده يقود إلى تعظيم الله – عز وجل – وإجلاله ومهابته،وهو ما يتبين في المعنى الثالث من معاني العقل عنده، وهو" البصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة ومنه العقل عن الله تعالى."(٥٩)

بالعقل إذن تعظم معرفة العبد بعظيم قدر الله– جل شأنه –ويبصر نعمه عليه،وإحسانه به،ويتنبه لعظمة ثوابه إن رضي، وعقابه لو غضب،فإذا علم ما وعد وتوعد، وأمر ونهى وألزم نفسه الطاعة، لحق بأصحاب الفوز العظيم،وظفر بالسعادة الأبدية،وهو في ذلك كله يكون معظماً لله، فإن كان هذا حال المصلي يصبح مجلاً هايباً مسارعاً لطاعته مستحياً من مخالفته،قد عني"بطلب العلم ورغب في الفهم والعقل عن الله – عز وجل – أكثر همته. "(٦٠)

وهو ما دفع أحد الباحثين المعاصرين للقول بدون التفكروالتفكير العقلاني عند المحاسبي لا يمكن للمرء أن يكون على دراية تامة بجودة أعماله في مرضاة الله.(٦١)

فطلب العلم إنما يهدف من ورائه الاستدلال به على عظيم قدر المولى – سبحانه – وعظيم قدر ثوابه وعقابه، فالعلم هنا وسيلته لكي يفهم حقائق معاني البيان، فإذا تم له ذلك أبصر عظمة قدر الله تعالى ووعده ووعيده، فأثمر ذلك لديه هيبة ورجاء ومحبة واشتياق ؛ لذا يفسر المحاسبي قوله تعالى:" لهم قلوب يعقلون بها"(الحج:46) بقوله :يعني عنه ، وقوله عز وجل:"وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة(الأحقاف:٢٦)يعني عقولاً . فالعاقل عن الله عنده هو من عظم قدره وقدرته ووعده ووعيده، وكان مؤمناً خائفاً منه تعالى ، قائماً بما أمر بإقامته على وجه التمام،مجانباً لما كره ونهاه عنه،فإذا كان كذلك استحق أن يسمى عاقلاً عن الله.ومن ثم أطلق المحاسبي على علم أحكام الآخرة اسم

العبادة الباطنة،فمن عرف ما غاب عنه من علم أحكام الآخرة بعقله،قوي تعظيم الله في قلبه، ومنها يكون الورع، والتقوى والزهد،وسائر الأخلاق الجميلة كالصبر ،والصدق،والإخلاص، والرضى، والقناعة، وحسن التوكل على الله،بجانب سلامة الصدر ،وصفاء النفس،والكرم،وحسن الخلق، وحسن المعرفة،وهذا العلم عنده لا يستغني عنه أحد"وعلمه والعمل به فرض على كل أحد".(٦٢)

وهنا إشارة لطيفة دقيقة، فأعظم العاقلين عن الله عند المحاسبي هم العارفين عقلاً عنه ومعرفة به ، الذين أقروا بالعجز ، وأنهم مهما بلغوا من المعرفة،فإن لها حدوداً تقف عندها .هذه الحدود تتمثل كنه معرفة ذاته سبحانه ،فمن كمل في العقل بالله تحققت فيه ثلاث خلال وهي: الخوف من الله والقيام بأمره ، وقوة اليقين به ووعده ووعيده ، وحسن البصر بدينه بالفقه عنه في سائر أحكامه الشرعية ، وتثمر هذه الصفات حقائق جليلة في القلب والجوارح، لها دلالاتها الروحية والأخلاقية على العبد في نفسه، وصلته بربه، وفي معاملاته مع الناس من حوله،فإذا تم عقل المؤمن عن الله ،أفرده بالتوحيد له في كل المعاني ، وعلم أنه"ملك له لا لغيره، وأنه عتيق ممن سواه، فتواضع لعظمته، واستعبد وخضع لجلاله، ولم يذل لمن سواه، وعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات المتنزه من كل الآفات،المنعم بكل الأيادي، والإحسان فأشتد حبه له. "(٦٣)

معنى ذلك أن العقل بالله عند المحاسبي أصبح وسيلة للتحقق بالمعنى الحقيقي للتوحيد، الذي يتجاوز شهادة أن لا إله إلا الله باللسان، ليمتد فعله في القلب الذي يصدق بأنه تعالى وحده معبوده، ومالك أمره، فيخضع ويذل لمعبوده الواحد، ويتحرر من سلطة كل من سواه في عالم الدنيا، فلا خوف، ولا هيبة، ولا رجاء، ولا تسليم لسواه،ولا رغبة سوى في رضوانه. وهنا تتبطن الحرية في أجل معاني العبودية لله – سبحانه – ، فيتحقق المصلي بالغاية التي خلق لأجلها، وهي العبودية الخالصة لله –عز وجل – وينعكس

ذلك على الجوارح فيتواضع لله ولخلقه، ويتوكل عليه، ولا يقصد سواه،كما يرضى بقضائه وقدره ويصبر على بلائه .

وإذا عقل المصلي التوحيد بمعناه الباطن،أدرك تفرد الله – عز وجل – بكل المعاني الجميلة والأخلاق الشريفة، فأحبه واشتاق إليه وتمنى لقاءه، كما أحب ما يحب ،وكره ما يبغض، وزهد في الدنيا وما سواه ، وجاهد نفسه في التشبه به بالتخلق بأخلاقه ، فيرتد ذلك على الناس من حوله،وهو حين عقل عن الله ما ابتدأ العباد من الرحمة ألزمها قلبه، وسعى برحمته بين الناس،فأحب محسنهم، وأشفق على مسيئهم،وبذل ماله على فقيرهم.(٦٤)

تأسيساً على ما سبق، راح المحاسبي يجزم بضرورة حضور العقل في الصلاة،إذ ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها،وقد عرف عن أئمة الهدى قول أحدهم،إذا كنت في الصلاة فأجعلها مبلغ همك،وآخر قصدك،ويتندرعلى من يفتقد التفهم لما يقول ويفعل في أثناء الصلاة، ويصفه بالفرس الذي على رأسه "مخلاة فارغة يرفعها ويحطها ولا شيء فيها "(٦٥)

بناء على ذلك، يصبح حضور العقل في الصلاة لدى المحاسبي أداة للتحقق بمقام الإيمان بل والإحسان كذلك، فالعقل في عموم مذهبه موجود لا معدوم، ووسيلة ضرورية لكسب سائر الدلالات الروحانية والخلقية السابق ذكرها،تلك التي تتضافر فيما بينها لتشكل المعنى الحقيقي للصلاة من جهة كونها تحفظ الصلة الوثيقة بين العبد ومعبوده، وعبرأركانها المختلفة يتحقق المصلي بمعنى العبودية لله بكل ما يشتمل عليه من مضامين روحية وخلقية. ولئن استقمت و"استعملت نعم الله – تعالى – في مسراته لترتقين في درجات العقل إلى محض الإيمان،وخالص الدين،وصدق اليقين. " (٦٦)

وهو ما يذكرنا بما أقره بعد ذلك إقبال شاعر الفلاسفة(ت:١٣٥٧ هجرية)، لما نبه إلى اليقظة العقلية في الصلاة،بل وجعل العقل البشري بعاداته في التفكير الواقعي يتطلب معرفة الله من خلال تجربة حية ملموسة،تتحقق كشرط من خلال"نزوع العقل المتجسد في العبادة".(٦٧) حيث يذهب إلى أننا يجب أن ننظر إلى الصلاة على أنها مكملة للنشاط العقلي،فيربط بينها وبين المعرفة،ويرى أن كل طلب للمعرفة هو في جوهره صورة من صور الصلاة،فالمتأمل للطبيعة تأملاً علمياً هو كالصوفي الباحث عن العرفان.(٦٨)

حضور القلب في الصلاة:

أكد المحاسبي على ضرورة حضور القلب الصالح في الصلاة، ففي سهوه ولهوه عن خطورة حاله في حضرة مولاه – عز وجل – وما يستدعيه ذلك المقام، إلى جانب غفلته بعلو رفعة وقدر من يناجيه ويذكره، فساداً للصلاة وإفساداً للدين كله ؛ لأن صلاح الباطن أصل تمام صلاح الظاهر، وصحة الأعمال الظاهرة التي نصت عليها الشريعة لا تنفك بحال من الأحوال عن صلاح القلوب، فإذا صلح قلب المصلي ورافقه في صلاته ، لم يطلب سوى رضا ربه وطاعة معبوده ، وألزم نفسه وجوارحه أمره ونهيه، وفر مما يغضبه، فعن صلاح القلوب، وحضورها في الصلاة كل معاني الإخلاص، والصدق، والتقوى لله – تعالى – ومراعاة حقوقه والخشوع لله .

وهذه كلها ما هي إلا أصول عامة لدلالات روحية وأخلاقية، تنبثق عنها مضامين ودقائق عديدة يتحقق بها المصلي فتزكي صلاته، ويستكمل بها شرائطها الباطنة الواجبة لتحقيق جوهر الصلاة كعبادة شرعية، غايتها الوصل بالله، والتحقق بالعبودية الحق. وهو في هذا يتفق مع ما جاء في النصوص الدينية لقوله سبحانه:" ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب".(آل عمران:٨) ، وقول

رسوله – صلى الله عليه وسلم–:"ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد ،وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب. " (٦٩) ويفسر المحاسبي معنى الجسد هنا بالدين؛لأن بالدين وحده يتحقق صلاح الجوارح وفسادها.

وأول ما يوجب المحاسبي تحققه في الصلاة بمعناها الباطن هو الخشوع لله – عز وجل – والهيبة له ، فإذا حضر الناس في الصلاة بأجسادهم، وقلوبهم ساهية عن الله –عز وجل – عدموا ذلك الخشوع المطلوب لله تعالى،ومن ثم ينصح المحاسبي الخلق بأن "أحضروا القلوب مع الأبدان،وقوموا لله مقام العبيد بين يدي أربابهم بخشوع وهيبة." (٧٠)

فالله – عز شأنه – أولى بالتعظيم والإجلال والخشوع من كل ما سواه،وهو يتعجب لبعض الناس ممن لا يعظمون الله بقلوبهم، وينصتوا لكلامه بخشوع واجب، كما يفعلون مع بعض عبيده من ملوك الدنيا المخلوقين، وكأن الله عندهم أهون عليهم من خلقه، وهو الأحق بالخشوع والخضوع هيبة له ورهبة ، وهو مالك الملك، وكاشف السر وما أخفى. مثل هؤلاء غفل قلبهم عن قدر مولاهم،ولم يتفهموا أو يتحققوا بمعنى قوله تعالى:"وقوموا لله قانتين."(البقرة:٢٣٨) فالقنوت هو الخشوع في الركوع والسجود،وغض البصر وخفض الجناح من رهبة المعبود جل شأنه.(٧١)

وكان العلماء بالله إذا قاموا للصلاة خشعوا لله بقلوبهم وصدقت جوارحهم،وخافوا أن ينشغلوا بشيء من أمور الدنيا وشواغلها إلا على سبيل النسيان،حتى قال أحدهم : إن القوم يقومون للصلاة الواحدة، والهوة بينهما في الفضل شاسعة، كالفرق بين السماء والأرض،وعلة ذلك تكمن في أن أحدهم"خاشع مقبل على الله سبحانه،والآخر ساه. " (٧٢)

وقد وافق الغزالي(ت:٥٠٥هجرية) المحاسبي بعد ذلك في تأكيده على أهمية حضور القلب في الصلاة،حتى جعله روح الصلاة، لكنه ألمح إلى صعوبة تحقق إحضار القلب في جميع أركان الصلاة لدى كافة البشر إلا قليلاً . مما دفعه إلى الاستعاضة عن كل أركان الصلاة ببعضها وأعني لحظة التكبير على وجه التحديد؛ فأقل "ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير،فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة.وكم من حي لا حراك به قريب من ميت.فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حراك به". (٧٣)

معنى ذلك أن حضور القلب الصالح هو الذي يحقق للعبد مقامي الإيمان والإحسان،ويصبح المؤمن العالم بالله هو أكثر خلق الله خشوعاً وخوفاً منه جل شأنه،وهو أيضاً أصلحهم قلباً، يفهم ما يتلو من ذكر يقربه من معبوده،ويعقل حكم كل ما يناجي به مولاه،فيفر من كل ما يسخطه ،ويفزع إلى كل ما يحبه من قول أو فعل أوخلق،وههنا تتجلى الدلالات الروحية والخلقية لجوهرالصلاة التامة عند إقامتها بكافة أركانها،وشرائطها الظاهرة والباطنة معاً بالمعنى الصحيح ،عندئذ تصبح ناهية للمصلي عن الفحشاء والمنكر على كل المستويات سواء في صلته بربه،أو بغيره،وتنعكس على حياته الخلقية في شتى معاملاته مع من حوله من أبناء عصره ؛لأن الحق – تعالى – قرن فلاح المؤمن بإقامة الصلاة على هذا الوجه بالتحديد، فقال فيها:"وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر."(العنكبوت: ٤٥) .وقال أيضاً:" قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون"(المؤمنون: ٢،١) .

بل إن العبد إذا أحكم إقامة الصلاة على النحو الملائم،وحرص على حضور قلبه عبر أركانها فخشع قلبه لمولاه،وأقبل عليه بكليته ظاهره وباطنه ،فلم يلتفت لشاغل مما حوله من أمور الدنيا، أقبل عليه الحق – جل شأنه – ويستشهد المحاسبي هنا بقول

خاتم المرسلين –عليه أفضل الصلاة والسلام – : لايزال الله – عز وجل – مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفت،فإذا صرف وجهه انصرف. (٧٤)

وحقيق لمن عرف هذا، وأنه تعالى مقبل عليه بوجهه، إذا صلى الصلاة المقبولة أن يخشع ولا يلهوأو يلتفت، بل يستحي من الله أن ينظر إليه فيجده لاهياً عنه،غافلاً عما هو فيه،وربما كانت هذه آخر صلاة له فيقبض وهو على هذه الحال.(٧٥)

وكان هذا حال كبار الصحابة عند إقامة الصلاة، حتى قيل في عبد الله بن مسعود كان إذا قام للصلاة كأنه ثوب ملقي من شدة خشوعه، وإقباله على الله بكليته، واستسلامه له تمام الاستسلام،وكذلك كان الزبير – رضي الله عنه – وهو يستنكر من لا يخشع في صلاته، وهو بعين الله وبين يديه،أما الصديق أبا بكر – رضي الله عنه – فكان في صلاته كأنه عود.فحري بالعبد أن يحذو حذوهم ويقبل على الله بقلبه، وخضوع جوارحه في كل ركن من أركان الصلاة.(٧٦)

فإذا بدأ العبد الصلاة فليكبر، ويجزم التكبير دون أن يرتفع صوته كثيراً،ويذكر بقلبه أن الله – سبحانه جل شانه – أكبر في القدر، والرفعة، والعلو، والجلال من كل ما عداه، وأنه وحده القديم الباقي،وما سواه محدث ضعيف،فيخشع له، ويشكر جزيل فضله، وكافة نعمه عليه،وليقم بين يديه مقام العبد الذليل،المناجي لمولاه بقلب وجل، ولسان صادق قد جعله وراء قلبه لا أمامه،إذ يرفض المحاسبي أن يصبح ذكره تعالى مجرد حروف، وكلمات ينطق بها اللسان، وتتقدم دون القلب،بل يرى من الضروري أن يتصدر الأخير الأمر كله،ويتأخر اللسان الذي يجئ من بعده ليصدق ما ناجى به القلب الوجل.ثم يضع المصلي يده اليمنى على اليسرى،وهو في كل ما يقول ويفعل يلازمه"التخشع والتذلل والاستكانة. "(٧٧)

ويستحب المحاسبي قبل تلاوة الفاتحة أن يقول المصلي: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك،ولا إله غيرك،ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم،وهو في قوله السالف يعرف بقلبه ويفهم أن ما يردده من ذكر إنما هو تنزيه لله – عز وجل – وتعظيم وإجلال له وحده،وإقرار بالتوحيد الذي هو خصيصة الإسلام، وجوهر رسالته.فإذا قال "الحمد لله رب العالمين"،فهم أنه يشكره على عظيم مننه عليه، وعلى سائر خلقه،وإذا قال "الرحمن الرحيم" فقد قصد بذلك أنه – جل شأنه – رحيم الدنيا والآخرة بكل مخلوقاته،وهو الأقرب إليهم الأرأف بهم المشفق عليهم.وقوله"مالك يوم الدين"يفهم منه الدار الآخرة، وما حوته من ثواب وعقاب.

أما قوله"اهدنا"فإذا قالها المصلي فينوي بها : ارشدنا يا مولانا إلى الصراط المستقيم، أى الذي لا عوج فيه عن الظفر برضائك، والفوز بمحبتك،وقوله "صراط الذين أنعمت عليهم" أي بنعمة الإسلام والقيام به،غير المغضوب عليهم يعني اليهود والنصارى وكل من خالفه وعصاه أو رضي بسخطه، ثم تنتهي ب "آمين"،وتقصد أن تسأله إجابة ما سألت ودعوت.وهكذا يكون المصلي بحسب المحاسبي في نصف الفاتحة"معظم لله شاكر ،ونصفها داع سائل." (٧٨)

بالإضافة إلى ذلك؛يرى المحاسبي ضرورة أن يعتقد المصلي في الركوع ليس فقط التعظيم لله تعالى، بل والاستجارة به من سخطه وغضبه،والتذلل والخضوع له ،وطلب رحمته وغفرانه فيما قصر من حقوقه،ويمد ظهره ورأسه على قدر الاعتدال، بلا ترفع أو تنكس،فيتحرى الاستواء ،وهو أن يستوي رأس العبد مع شعوره بالعجز ، والعبودية لله تعالى وحده،فيكرر سبحان ربي العظيم ثلاثاً،وهو يكرر في نفسه، وقلبه ربي أعظم من كل شيء .وكذلك يفعل عند سجوده، إذ يعتقد المصلي التذلل، والخضوع، والتواضع لله – جل شأنه – ويكرر سبحان ربي الأعلى ثلاثاً وإن زاد فحسن،وهو يردد بقلبه ربي أعلى

من كل شيء في الدنيا،ثم يرفع ويكبر بنية أن الله وحده أكبر من كل ما سواه.فإن شاء المصلي أن ينهض فلا يرفع عجزه قبل رأسه.(٧٩)

وقد أكد الغزالي الأمر نفسه لما صرح بأن أعلى درجات استكانة العبد، وخضوعه، وذله لله – عز وجل – إنما تكون في سجوده؛ ودليل ذلك تمكن أشرف أعضاء الإنسان وهو وجهه، من أذل الأشياء وهو التراب.ومن ثم يستحب الغزالي من المصلي ألا يجعل حائلاً يحول بين وجهه والتراب،فذلك "أجلب للخشوع وأدل على الذل.وإذا وضعت نفسك موضع الذل، فأعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله.فإنك من التراب خلقت، وإليه تعود. " (٨٠)

ولا شك أن ما ذكره المحاسبي من دلالات روحية يتمثلها قلب المصلي في ركوعه، وسجوده بما اشتملت عليه من شعور بالتعظيم، والإجلال لله – تعالى – الأعلى من كل شيء، بجانب الإحساس بالعجز، والتذلل، والاستكانة لله الواحد القهار، يعكس مضامين أخلاقية واضحة على العبد نفسه، وسلوكه مع غيره،وأهمها التواضع لله – تعالى – أولاً بوصفه المعبود الذي له عليه كل السلطان، والحكم المطلق،والتواضع لخلق الله، وأحبابه من عباده.

وهو وإن ركز على سمة التواضع، فدلالة ذلك تتكشف من جانبين:أولاهما فلأنها تطرد من قلب العبد نقيضها من الكبر، والإحساس بالعلو، والزهو،والكبر عند المحاسبي أعظم الآفات، وتتشعب عنه أكثر البليات، بما يستوجب معه سرعة عقوبة الله – تعالى – للمتكبر؛لأن الكبر لا يحق إلا لله – تعالى– وحده،فهو المليك الإله القادر، وغيره عبد مملوك له،فإذا ادعى العبد الكبر، فقد تعدى على ما لا يحق إلا لله – تعالى – وحده، ونازعه فيما هو له،واستوجب غضبه،وهوأصل الأخلاق الخبيثة من العجب، والحقد، والحسد والرياء.فقال تعالى:" إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه(غافر: ٥٦)

،وثانيتهما:أن التواضع عند المحاسبي باباً عظيماً، إذا تحقق في قلب العبد، أغلق عنه فتن الدنيا، وشرورها بقدر ما يفتح له عن خيرات الآخرة وبركاتها،وهو راضي البال في الدنيا باليسير من الرزق،سعيد برحمة ربه، ورضاه عنه في الآخرة. (٨١)

وقد وافق السهرودي البغدادي(ت:632 هجرية)المحاسبي فيما قرر بشأن التواضع، حتى عده من أحسن أخلاق الصوفية. فلا يلبس العبد لبسه أفضل من التواضع.لكن الأهم هنا تلك الحقيقة التي نبه إليها،فالعبدعنده "لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه،فعندئذ تذوب نفسه، وتصفى من"غش الكبر والعجب، فتلين وتطيع للحق والخلق." (٨٢)

العلاقة بهذا شرطية بين التواضع للحق، والتواضع مع الخلق،ومتى لم يكن للصوفي حظ من التواضع الخاص على بساط القرب في حق المولى جل شأنه، فلا حظ له في التواضع مع عباده؛ لأن مثل هذا الخُلق سعادات لو أدرك حقيقتها، تقبل بكليتها؛ لهذا قيل فيه – التواضع – أشرف أخلاق الصوفية من رزقه أراح واستراح. (٨٣) ولذا قال – صلى الله عليه وسلم–:"إن الله – تعالى– أوحى إلي أن تواضعوا،حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد. " (٨٤)

كما يجيء الحياء من الله ليعكس دلالات روحية وخلقية تكتنف المصلي، وتنعكس على الناس من حوله،وهو ما يتكشف إذا عرفنا أن أحد المعاني التي أوردها المحاسبي في الحياء هو الامتناع عن كل خلق رديء في دنيا ودين، لا يرضاه الله – جل شأنه – حتى أن المستحيي من الله لا يكاد يُرى في مكان يسخط الله، ويستحي منه ، وجوارحه لا تضمر ما يكره الله – جل شأنه –،بل تمتنع عن كل الملذات، والشهوات التي لا توافق محبة الله ، وتأتي سائر أفعاله موافقة لما يحب مولاه ، وتكون مذاهبه على"الموافقة،كثير الاحتمال ،واسع العلم،عظيم الحلم ، دائب الفكر، كثير الذكر. " (٨٥)

بالإضافة إلى ذلك، يتجلى حضور القلب عند المحاسبي بدلالته الروحية والخلقية لدى المصلي في ركن التشهد؛ فعندما يشير العبد بالسبابة ، فعليه أن يجدد تذكير قلبه بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، الذي لا إله سواه ، يتوجه إليه ويطلبه وحده مخلصاً له ، يرجو رحمته، وغفرانه، على ما فرط من أوامره ونواهيه، فيفهم من قوله "الحمد لله" الملك وكذلك معناه في اللغة،ثم في قوله "والصلوات والطيبات لك"، فيعتقد المصلي بقلبه أن الطيبات كلها، والأخلاق الطاهرة جميعها، وكل جميل من قول، أو فعل يصدر عنه، إنما يقصد به التقرب من الله – تعالى – ولا غاية له سواه،أما قوله"السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته" فيأمل بها أن يصل سلامه ومحبته للنبي – عليه أفضل الصلاة والسلام – وقوله "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين".يذكر به المصلي بقلبه السلام على نفسه، وغيره من أهل الإيمان، وعباد الرحمن الصاحين في السماء والأرض ، ويأمل من قلبه أن يرد الله عليه السلام بعددهم.(٨٦)

أما في شهادة المصلي : أشهد أن لا إله إلا الله ،ينبغي أن يقترن اعتقاده، وشهادته باللسان، الإخلاص في باطنه بالوحدانية، فإن فعل كانت ثمرته في قلبه التوكل عليه سبحانه، بأن ينفرد قلبه بتفويض المقدرة إلى الله وحده دون سواه،والتبري من كل حول وقوة؛ لأن المتوكل في حقيقته يركن إلى الله في كل حاجاته الدنيوية والأخروية،ويقطع رجاءه ممن سواه، ولا يرى في نفسه موضع الاختيار ،بل يكون الله حسبه في كل وقت ، فيتحقق بالرضا، وتسكن روحه إلى السكينة، والطمأنينة، واليقين بالله.(٨٧) لذا قال تعالى:" ومن يتوكل على الله فهو حسبه."(الطلاق: ٣)

وههنا تتضح خطورة الصلاة وأهميتها في التحقق بمقام الإيمان عند المحاسبي،وهو ما يتبدى عنده لما جعل الاعتقاد القلبي بالوحدانية، وانعكاسها على العبد الموحد في فعله وجوارحه، شرطاً لازماً لإتمام ركن التشهد في الصلاة،ثم نوه على تجليات

التحقق بالتوحيد وأهمها التوكل، فقدم لنا صورة رائعة للعبد المتوكل على الله حق توكله، جعله قد علم علماً يقيناً واطمأنت روحه، وسكن قلبه إلى أن ما قسمه الله له سيناله، حتى لو كان في مهب الريح، وما ليس بمقدر له، ومقسوم لأجله، لن يدركه حتى لو اجتمع أهل الأرض جميعاً لإيصاله له ، فما هو لك سيصلك، وما لم يكتبه المولى لأجلك، لن تدركه ولو كان حبة خردل .

لكن الأهم هنا ربط المحاسبي بين الاعتقاد بالتوكل، والتحقق بالإيمان ربطاً شرطياً ، ويجزم بأن التوكل محض الإيمان، وهو فريضة على كل عبد، فلا يكون هناك إيمان دون توكل ، والعكس صحيح، فإذا عدم التوكل عدم معه الإيمان، بل إن العلاقة بينهما علاقة طردية ، بمعنى أنه إذا زاد الإيمان زاد معه التوكل، ولو نقص الأول قل معه الثاني،والناس عنده"يتفاضلون في التوكل والإيمان على قدر اليقين. "(٨٨)

ويستشهد المحاسبي على تلك العلاقة الشرطية بين الإيمان والتوكل بقوله جل شأنه: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين".(المائدة:23).وهو أمر إلهي واضح بجعل التوكل فريضة على كل مؤمن. مما يبرز أهمية الصلاة في تحقيق شرط الإيمان، إلى جانب الوحدانية التي هي جوهر الرسالة المصطفوية. والصلاة بهذا تحقق للعبد المصلي بلوغ مقامي الإسلام والإيمان.

فإذا فرغ العبد من التشهد فعليه أن يشهد بقلبه أن البعث، وكل ما يتعلق بالمعاد الأخروي من ثواب، وعقاب، وجنة ونار، كل ذلك حق، ويشكر الله عن نفسه، وعن غيره، بأن يعلم بقلبه علم اليقين أنه سبحانه أصل كل النعم عليه، وعلى سائر الخلق، فيحقق غاية الشكر وهي "معرفة نعم الله على الخلق جميعاً ".(٨٩)

كما تتجلى الدلالات الروحية والخلقية للصلاة في ركن التشهد عند المحاسبي، حين يشترط على المصلي الثناء، والشكر لله باللسان والقلب، وجماع الشكرعنده يكون في الحمد لله ، وحسن الثناء عليه، وأداء التكاليف الشرعية كما كُلف بها، والتقرب إليه – جل شأنه – بكل قول، وفعل أحبه، وحث عليه، ويبعث على الشكر ضروب عدة منها: حرص المصلي على دوام تذكر النعم الإلهية عليه، وعلى سائر خلقه، وكذلك الخوف من سخطه تعالى ووقوع نقمه ، فإذا استكثر العبد المصلي منن الله – سبحانه – عليه، اشتد حياؤه منه، بتذكرإحسان الله عليه، بفضله وعظيم نعمه، فيستحي من فعل المعاصي، والتقصير في حقه.وهذا هو العبد الشكورالذي"دأب في أداء شكره فلم يقطع الله عنه المزيد، وكان عنده من الله حسن التأييد. "(٩٠)

وبعد الثناء لله تأتي الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم الدعاء لنفسه بكل ما يحب ، فإن كانت الصلاة مناجاة بين العبد وربه، فالدعاء من جانب المصلي يحقق كونها مناجاة، وصلة دائمة تصل العبد بمعبوده الذي يجله ويفزع إليه وحده، ويطلبه عند الدعاء وقضاء الحاجات، ولا يغفل المحاسبي أن يوصي العبد بتذكر إخوانه من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات في دعائه، بأن يجعل لهم نصيب مما دعا لنفسه بما يحب،فإن"المستغيث مأذون له في الاستغاثة،والله موفق للدعاء".(٩١)

وفي هذا أسمى أنواع المحبة، والألفة، وإرادة الخير بكل تجلياته للآخر كما تريده لنفسك، وهو ما يثمر مبدأ التكافل والإيثار المتضمن في تعاليم ديننا السمحة،والتحقق بمثل هذه الأخلاق الكريمة يضمن للعبد بلوغ الكمال الإيماني، الذي يشترط على المسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بكل ما ينطوي عليه هذا القول الفضفاض من جميل الأخلاق، التي تتضافر فيما بينها لتنظم العلاقة بين الناس،وتنعكس بالصلاح والسعادة

على الأمة كلها، وفقاً لهذا الأصل العام،وهو ما دلت عليه النصوص الدينية، فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – :"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه."(٩٢)

وإذ صرح المحاسبي بضرورة حضور القلب، و تحقق المصلي في ركن التشهد بتلك المسائل من الاعتقاد بالوحدانية، والتوكل، والدعاء، والشكر لله،ثم الصلاة والسلام على حبيب الله، وخاتم رسله عليه أفضل الصلاة والسلام،والدعاء بالخير للمؤمنين والمؤمنات،فهو في ظني يسعى من وراء ذلك كله ليصل بالعبد إلى أن يكون محباً لله تعالى.

وتنعكس آية محبته الصادقة لله–جل شأنه– عليه، وعلى سائر العباد من حوله، ودليلنا على هذا أن المحبة للحق –سبحانه وتعالى –عند المحاسبي لا تكون إلا في ثلاثة أشياء،ولا يسمى محباً لله– عز وجل –إلا بها،وهي محبة المؤمنين في الله، وعلامتها كف الأذى عنهم،وجلب المنفعة إليهم، ومحبة النبي –عليه أفضل الصلاة والسلام – وعلامتها متابعته في كل قول وفعل وخلق بوصفه القدوة الحسنة في الكمال الإيماني والأخلاقي،كما أن محبة الله يلزم عنها محبة نبيه لقوله جل شأنه:"قل إن كنتم تحبون الله فأتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم"(آل عمران:31) ومحبة الله – عز وجل – بإيثار طاعته، وطلب رضاه على معصيته، وإثارة سخطه. بالإضافة لذلك فلما اشترط المحاسبي على المصلي الشكر لله – تعالى – على عظيم نعمه عن نفسه وغيره؛ فذلك لأنه يقنع بأن"ذكر النعمة يورث المحبة."(٩٣)

فإذا انتهى العبد من التشهد فعليه أن يجزم السلام،ولا يرفع به صوته، وفي نيته السلام على الملائكة،ثم يستغفر الله العظيم ثلاثاً بلسانه،ويعتقد بقلبه الاستغفار من التقصير في الصلاة إن وجد،ومن سائر ذنوبه السالفة.

وإطلالة على قول المحاسبي تظهرنا أن الصلاة في حقيقتها ليست مجرد أوضاع ورسوم، أو حركات من قيام وقعود،كما أنها أجل من أن تكون مجرد تحريك للسان بكلمات وحروف صماء بلا وعي،لكنها فهم وعقل وتدبر لما ينطق به العبد،بل لابد من إعمال العقل والقلب معاً في عقل وتفسير ما يتلو من أوامر وتكاليف إلهية، ووعظ وأدب حض عليه المولى –عز وجل – كما يعرف مما جاء في آيات الذكر الحكيم من دلائل على نعمه تعالى عليه، وعلى سائر الخلق وكيفية شكره، ويعي خطاب وعده ووعيده ، فيخاف على نفسه ودينه؛ لأنه عندئذ يعرف بما يتلو، ويتدبر خطأه، وصوابه، وعيوبه، ومحاسنه، وهو في ذلك كله يفهم"فهم يقين تقصد بتفهمه المزيد والغنيمة. "(٩٤)

فإذا كان ذلك كذلك، وجب علينا أن ننتقل للكلام عن آخر ما اشترطه المحاسبي للتحقق بإقامة الصلاة بمعناها الظاهر والباطن.

ترتيل آيات الذكر الكريم:

دعا المحاسبي المصلي أن يلزم نفسه عند قراءة آيات القرآن الكريم بالترتيل؛ فالمرتل في صلاته يكتسب الرقة والصلاح في قلبه، بالإضافة إلى ثلاث فوائد أخرى:توقظه لمعنى يتنبه له عقله،وقد تسعده بعلم يفيده، أوبصيرة في دينه،وهو فيما يتلو ويرتل من سور،قد تكون حجة له على طاعة مولاه، ولزوم أمره ونهيه ووعده ووعيده،أو تصبح حجة عليه في تفريط حدود الله.(٩٥)

لذلك يؤكد المحاسبي على المصلي أن يرتل ما يقرأ من سور، ويتفهم ما يقرأه ، فإذا قرأ ما يدعو للخوف علم أن الله – تعالى – يدعوه من خلال كلامه ليخافه،أو سارع إلى طاعاته وتحصيل ثوابه، وربما دعاه من خلالها إلى اليقظة من الغفلة والرجوع إليه، والتوبة من ذنب أو تقصير في الإقبال عليه ، ومن ثم يشترط على المرتل للآيات بالتريث

والتمهل وترك العجلة في التلاوة والفهم والتدبر ،فقد أخبرالحق تعالى أنه أنزل"كتابه ليدبروا آياته بعقولهم،ويتذكروا ما قاله بألبابهم"(٩٦)، ويستشهد على ذلك بقوله جل شأنه:" كتاب أنزلناه ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب"(.ص:٢٩) .

ولما كانت تلاوة وترتيل الآيات القرآنية بوعي وفهم وتدبر، بهذا القدر من الأهمية والخطورة، لما بها من فوائد جليلة،فلا عجب إن صرح المحاسبي بان لكل آية من آيات الذكر الحكيم ظاهر ،وباطن، وحد، أما ظاهرها فهو تلاوتها باللسان فحسب،وأما باطنها فتأويلها،وأخيراً حدها ويتمثل في منتهى فهمها وتدبرها بمعرفة مقصدها على النحو الذي أراده الحق تعالى منها، وهذه السمة الأخيرة هي الفارقة بين الكاذب والصادق؛ لأن "أقل الصدق من المريد المؤمن بعد الإيمان بالآية أن يفهمها عن ربه".(٩٧)

والحق أن قول المحاسبي بوجوب ترتيل الآيات القرآنية فيما ينطق به المصلي يعود إلى أهمية ما يحققه هذا الفعل، إذا اجتمع بالفهم والتدبر من دلالات روحية وأخلاقية للعبد تسهم في تحققه بالكمال الروحي والإيماني سواء في حاله مع ربه أو مع الناس،إذ يلزم عن الترتيل المتدبر للآيات الكريمة على سبيل المثال التعظيم لله – تعالى – وتنزيهه عن المشابهة والمماثلة بغيره من المخلوقات ،كما في قوله تعالى:"ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله".(المؤمنون:91)،كما يحقق الترتيل والتفهم لآيات الذكر الحكيم الخشوع لله – تعالى – والخضوع له والاستسلام لأمره ونهيه، بما ينعكس عليه بالفلاح والظفر بالسعادة والفوز بالجنة، فقال تعالى:"قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون".(المؤمنون 1،2).

وإذا كان الفلاح والفوز بالجنة من نصيب أهل الخشوع في الصلاة ، فالويل والعذاب والبقاء في النار لأصحاب السهو عن إقامة صلواتهم بأحكامها ومواقيتها المعلومة؛ لذا قال جل شأنه:"فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم

ساهون"(الماعون:4،5).كما زخرت الآيات القرآنية بما يحقق للعبد الكمال الخلقي بالحث على الأخلاق الجميلة ، فقال سبحانه:"الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين".(آل عمران:5)

٣- الدلالات الروحية والخلقية للفراغ من الصلاة: -

إذا انتهى العبد من إتمام الصلاة بأركانها الظاهرة ودقائقها الباطنة، ينبغي أن يعقب ذلك شعور القلب بالإشفاق والهم والوجل،هذا الشعور يلازم المصلي بعد الانتهاء من الصلاة؛ لخوفه وتوجسه من ألا تقبل صلاته، ويرد عن باب رحمة الله، ورضوانه لما سلف من ذنوبه، ويظل على خوفه من ألا يكون قد أحكم إقامة صلاته بكافة أركانها المفروضة كما أوجبها الله – عز وجل – ومثل ما أحب أن يكون عليه في حضرته جل شأنه، أويكون ضيعها فضاع معها عماد دينه، وحيل بينه وبين رضا ربه والقرب منه،فيظل هكذا ويزداد خوفه من ألا يدرك صلاة أخرى بعدها. وهنا يستشهد المحاسبي بحال يحيي بن وثاب الذي كان إذا قضى الصلاة مكث فترة طويلة من الوقت تُعرف عليه ما أسماه كآبة الصلاة.(٩٨)

ولنا أن نلتفت أن الخوف عند المحاسبي يأتي على قسمين: خوف الخائفين، وخوف المستأنفين،أما الأخير فهو خوف الجنايات والعقوبات، وهو في المرتبة الأدنى، ويسعى أهله دوماً للتقرب إلى الله – عز وجل – جهد طاقتهم، فيجدون في الطاعات ويتركون الراحات، أما خوف الخائفين فهوالخاص بالعارفين، وهو أعلى درجة؛ لأنه الخوف القائم على المعرفة الحقة بالله – عز وجل – والخوف من سطوات نقمه وغضبه ،فالخوف عندهم يأتي على قدر المخوف منه،والرهبة على قدر المرهوب.بدليل خوف الإنسان من القط لا يضاهى خوفه من الأسد،وحذره ورهبته من الملك لا يقارن بالخوف من أعوانه،كما

أن الخوف من النارغير الخوف من صاحبها؛ لأن النار"لا تضر ولا تنفع إلا بأمر الله –عز وجل – الذي يملك الضر والنفع وكذلك الخوف في القلوب. " (99)

معنى ذلك أن الخوف الذي قصده المحاسبي هو الذي يجعل قلب المصلي يطالع سطوات الله – جل شأنه – وعظيم غضبه وعقابه ،فينتج عن ذلك ثمرات أرادها ألا وهي الخوف من مخالفة الله –عز وجل – بلزوم أمره ونهيه، وتعظيمه، وتعظيم وعيده.

ودلالة خوف ووجل المصلي عند الفراغ من الصلاة ههنا لها بُعد روحي سام، يتمثل فيما يستوجبه من تحريه مراقبة الله في كل ما يقوم به من قول وفعل سراً وعلانية أعني تقوى الله.إذ التقوى عند المحاسبي تعني الحذر من الله – جل شأنه – بالمجانبة لكل ما يكره.(١٠٠)

من هنا إذا أحكم المصلي مراقبة الله – تعالى – في كل حركاته وسكناته، يكون بهذا قد بلغ مقام الإحسان الذي أحبه الصوفية؛ لأن المراقبة هي الإحسان طبقاً لما سبق وذكرناه من معاني الإسلام والإيمان والإحسان، وتصبح صلاته باباً لمعرفته لله – تعالى – فيلزم نفسه قربه،ويعلم علم اليقين أنه – تعالى – أقرب إليه من حبل الوريد،وأدرك قيامه عليه في حياته ومماته وسعادته وشقائه، فعرف عظيم قدرته عليه، وأنه – جل شأنه – الرقيب الحفيظ على عموم خلقه، وهو الواحد الذي لا شريك له، ولا شبيه في ملكه، صادق وعده ومنفذ وعيده ، فتيقن بقلبه وتثبت من ذلك كله، وصح به عزمه.عندئذ يكون قد وصل إلى المعرفة، وصحت عليه الحجة.وهذا "مقام الخائفين العارفين الأتقياء الورعين".(١٠١)

بناء على ذلك، يصبح الخوف والوجل عند المصلي لحظة الانتهاء من الصلاة، بوابة العبور إلى التقوى، والورع في قادم أوقاته، وأيامه بعد ذلك. وهما معاً يحققان للعبد

الكمال الإيماني والخلقي في الدنيا، والسعادة في الدنيا والآخرة.وهو ما دلت عليه النصوص الدينية فقال تعالى:"إن المتقين في مقام أمين.في جنات وعيون".(الدخان:،٥١،52)،وقوله عز شأنه:"وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. " (آل عمران: ١٣٣).

ويأتي الرجاء بعد الخوف، وهو أن يأمل العبد من مولاه قبول ما قدم من أعمال بكرمه، ورحمته، وفضله، وجزيل الثواب عليها ، كما أكرمه بإتمامها بالإضافة إلى خوفه من أن تُرد عليه،أو يكون قد دخلها النقص من بين يديه، أو من خلفه فأفسدها عليه،وقد لا يمهله عمره الوقت للصلاة التالية، فقال تعالى:" أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً".(الإسراء: 57).ولما كان الرجاء الصادق على قدر الطاعات، كما أن الخوف على قدر الذنوب، فينبغي على أمثالنا من الناس"أن يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء."(١٠٢)

الخاتمةُ ونتائجُ البحثِ:

وخاتمةُ القولِ إنَّ الصلاةَ تُعدُّ عبادةً منْ أهمِّ العباداتِ الإسلاميةِ في تحقيقِ عبوديةِ الإنسانِ للهِ، وهيَ ضرورةٌ لكمالِ علاقتهِ بالخلقِ انعكاساً لعلوِ مكانةِ الحقِّ عندَهُ، وعليهِ فقدْ خلصتْ الدراسةُ إلى النتائجَ التاليةِ:

١- تحققُ المصلي بإقامةِ الصلاةِ على وجهِ التمامِ تضمنُ لصاحبها بلوغَ مقامِ العبوديةِ الحقةِ الذي هوَ أشرفُ ما يُحققهُ العبدُ في دنياه، فهوَ دليلُ كمالِ إنسانيتهِ، الذي هوَ جوهرُ الإنسانِ وحقيقتهِ وبها شرفُهُ على سائرِ المخلوقاتِ.

٢- ربطَ المحاسبي ربطاً علياً بينَ معرفةِ اللهِ – جلَّ شأنَهُ – منْ جهةٍ، وسائرَ أعمالِ البرِّ منْ جهةٍ أخرى، وجعلَ العلاقةَ بينهما طرديَّةً، فكلما كملتْ معرفةُ العبدِ باللهِ كَمُلتْ معها أعمالُهُ على وجهِ التمامِ والعكسُ صحيحٌ، فالمعرفةُ مفتاحٌ وأصلُ كلِّ ما يقومُ بهِ الإنسانُ.

٣- حرِصَ المحاسبيُّ على الجمعِ بينَ طهارةِ الجوارحِ، وطهارةِ القلوبِ يعكسُ منهجَهُ الصوفيَّ السنيَّ المعتدلَ، الذي يجعلُ المعرفةَ بظاهرِ العلومِ الشرعيةِ ضرورةً وباباً يُدْلِفُ منهُ إلى أنوارِ الحقيقةِ.

٤- يتجلى منهجُ المحاسبي في الخطابِ الصوفيِّ القائمِ على الترغيبِ والترهيبِ والربطِ اللزومي بينَ الدنيا كمقدمةٍ والآخرةِ كنتيجةٍ حينَ يجعلُ طهارةَ المصليَ الظاهرةَ والباطنةَ ضرورةً لإقامةِ الصلاةِ على تمامها في الدنيا وأمراً لازماً للفوزِ وفتحِ أبوابِ الجنةِ للسعداءِ في الآخرةِ.

٦- تتبدى جَدَّةُ آراءِ المحاسبي وتفردُهِ في آرائه حينَ يُؤكدُ على ضرورةِ حُضورِ العقلِ في الصلاةِ بأركانها المختلفةِ، بلْ ويجعلهُ وسيلةً للتحققِ بمقامي الإيمانِ والإحسانِ بكلِّ ما

ينطويانِ عليهِ منْ دلالاتٍ روحيةٍ وخلقيةٍ. وهوَ ما يعكسُ أهميةَ العقلِ ومكانتَهُ الرفيعةُ عندَ المحاسبي الصوفي المحققِ.

٧- تتكشفُ أهميةُ صلاحِ القلوبِ، وحضورِها في الصلاةِ عندَ المحاسبي فيما تُثْمِرُ عنهُ منْ معانٍ روحيةٍ وخلقيةٍ تتمُّ بها أركانُ الصلاةِ الباطنةِ الواجبةِ لتحقيقِ جوهرِ الصلاةِ كعبادةٍ شرعيةٍ غايتُها الوصلُ باللهِ والتحققُ بمقامِ العبوديةِ للحقّ وحده.

٨- لحضورِ القلبِ في الصلاةِ عندَ المحاسبي دلالاتٌ روحيةٌ عديدةٌ أهمُّها – في ظني – التعظيم والإجلال له بما انطوى عليهِ منْ دلالاتٍ روحيةٍ فرعيةٍ.

٩- التواضعُ عندَ المحاسبي أهمُّ الدلالاتِ الخلقيةِ المتولدةِ عنْ إقامةِ الصلاةِ التامةِ، وهذهِ المكانةُ الساميةُ للتواضعِ وما يتضمنَهُ منْ معانٍ أخلاقيةٍ فرعيةٍ، ترتدُّ إلى ما تلعبُهُ منْ دورٍ إيجابيٍ فعالٍ في الحياةِ الخلقيةِ للعبدِ والمجتمعِ ككلٍّ منْ حولِهِ.

١٠- تتبدى أهميةُ ترتيلِ القرآنِ في الصلاةِ عندَ المحاسبيّ – إذا اقترنتْ بالفهمِ والتدبرِ – في كونها بمثابةِ وعاءٍ نهائيٍ، يحوي داخلَهُ سائرَ الدلالاتِ الروحيةِ والخلقيةِ المنبثقةِ عنْ حضورِ العقلِ والقلبِ في الصلاةِ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ وردَ ذِكْرُهُ بالفعلِ في القرآنِ الكريمِ. فههنا إجمالٌ بعدَ تفصيلٍ.

١١- الصلاةُ عندَ المحاسبي وسيلةٌ لتحققِ العبدِ بمحبةِ اللهِ –عزَّ وجلَّ – فحضورِ العقلِ وما يلزمُ عنْهُ منْ علمٍ باللهِ إلى جانبِ حضورِ القلبِ على مدى أركانِ الصلاةِ كلِّها تُثْمِرُ حُصولَ المحبةِ للهِ – تعالى – في قلبِ المصلي.

هوامش الدراسة:

١-الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، الجزء الثامن،مطبعة السعادة،مصر،الطبعة الأولى،١٩٣١م، ص ٢١١.

٢-القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، اعتنى به وحققه أبو سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠١٤م،ص ٥١.

٣-تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الأول، بدون تاريخ،ص ٣٧٩.

٤-الغزالي،المنقذ من الضلال، تحقيق د.محمد محمد أبو ليلة،د.نورشيف عبد الرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة، واشنطن،الولايات المتحدة الأمريكية،٢٠٠١م،ص 170.

٥- محمد عبده، رسالة التوحيد،ضمن الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، تحقيق د.محمد عمارة،دار الشروق،القاهرة،الطبعة الأولى،١٩٩٣م، ص 502.

٦-ابن تيمية، العبودية، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار الأصالة، الإسماعيلية، الطبعة الثالثة، 1999م، ص 23،24.

(7) Eric GeoffroY, Introduction to Sufism: The Inner Path of Islam, translated by, Roger Gaetani, world wisdom, Inc, United States of America,2010,p.55

٨-ابن تيمية، العبودية،ص 20.

٩-أحمد محمود الجزار،التصوف عند رواد الفكر المصري المعاصر،كنز ناشرون ،لبنان،بيروت، الطبعة الأولى ،2021م،ص 122.

١٠-عبد الحليم محمود، العبادة أحكام وأسرار، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،١٩٩٨م، ص 30.

١١-المحاسبي، النصائح،تحقيق عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٨٦م، ص 201 .

١٢-ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية،تحقيق د.يحيي بن محمد بن عبد الله الهنيدي،مكتبة الرشد،السعودية،الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م،ص ٢٩٠.

١٣-المحاسبي، آداب النفوس، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٩١م ، ص34.

١٤-أخرجه البخاري في الإيمان،21/2، والنسائي في الطهارة 1/ 58،95.

١٥ -محمد عبده، رسالة التوحيد،ضمن الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص 465.

١٦-أخرجه أحمد(٨٩٤٩) والبخاري في الأدب المفرد(٢٧٣) واللفظ لهما .

١٧-عبد الحليم محمود، أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص 177.

١٨-أبو طالب المكي،قوت القلوب في معاملة المحبوب،الجزء الثالث،حققه وقدم له د.محمود إبراهيم محمد الرضواني،مكتبة دار التراث،القاهرة،الطبعة الأولى،٢٠٠١م،ص 1214.ولهذه المنزلة الشريفة للصلاة أمر الحق تعالى رسوله الكريم بإقامتها ودعوة أهله إليها،فقال تعالى:وأمر أهلك بالصلاة واصطبرعليها""طه:١٣٢".وقد أمر سيد الخلق بدوره أبا هريرة فقال:أمر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب،وقد وازن بعض العلماء بين مقيم الصلاة والتاجر، فذهبوا إلى أن المصلي مثل التاجر الذي لا يربح الكسب حتى يخلص له رأس ماله،والأمر عينه في حال المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة.انظر الغزالي، إحياء علوم الدين،الجزء الأول، دار ابن حزم،بيروت، لبنان،الطبعة الأولى،٢٠٠٥م،ص ١٧٤.

١٩-أخرجه مسلم رقم(82) وانفرد به عن البخاري،وأخرجه النسائي في كتاب الصلاة باب الحكم في تارك الصلاة حديث(٤٦٣) .

٢٠-الهجويري،كشف المحجوب،الجزء الثاني، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل،المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،٢٠٠٧م، ص 542،543 .

(21) James Fadiman, Robert Frager, Essential Sufism Castle books ,New Jersey,1998,p.204

٢٢-ابن القيم، ذوق الصلاة،إعداد عادل الزرقي،دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى،2009م،ص 9 . لأجل ذلك عني الصوفية بإقامة الصلاة بوصفها عصام اليقين ورأس القربات وغرة الطاعات،فلم يقفوا عند المعنى الظاهر لأحكامها وشرائطها المعتادة كما هو الحال عند الفقهاء ،وإن كانوا قد حصلوا هذا الجانب من التفقه في العبادة،ولكنهم جمعوا بالإضافة إليه الدلالات الروحية والخلقية الكامنة في دقائقها الباطنة.وصار مبلغ اهتمامهم بها وبتحقيقها على وجه الكمال الذي يرونه، فها هو الغزالي يصرح بأنه استقصى في فن الفقه أصول الصلاة وفروعها لتكون بمثابة خزانة يفزع إليها ويعول عليها كلما اقتضت الحاجة،لكنه صرف جل عنايته في "أسرار الصلاة" على ما لابد منه للمريد من شرائطها الظاهرة وأسرارها الباطنة،بغية الكشف عن دقائق معانيها الخفية من الخشوع والإخلاص والنية،وهي مسائل لم يهتم بها الفقهاء ،ولم تجر العادة على ذكرها في فن الفقه.انظر الغزالى، إحياء علوم الدين،الجزء الأول،ص ١٧٢.

٢٣-المحاسبي،فهم الصلاة، تحقيق عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٨٦م ،ص 357 .

٢٤-المحاسبي،رسالة المسترشدين،تحقيق عبد الفتاح أبو غدة،مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب،الطبعة الثانية،١٩٧١م،ص 133.

٢٥-المحاسبي، فهم الصلاة، ص 364.

٢٦-المحاسبي،الرعاية لحقوق الله،تحقيق عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،الطبعة الرابعة،بدون تاريخ،ص 246 .

٢٧-أخرجه البخاري،باب بدء الوحي،رقم(١) باب :ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امريء ما نوى رقم(54).

٢٨-المحاسبي، آداب النفوس،ص ١٢٠

٢٩-المصدر السابق،الصفحة نفسها.

٣٠-المصدر السابق، ص ١٣٩

٣١-المحاسبي، المكاسب والورع والشبهة وبيان مباحثها ومحظورها واختلاف الناس في طلبها،والرد على المغالطين فيه، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٨٧م، ص ٦٨.

٣٢-المحاسبي،الرعاية لحقوق الله،ص 44 .

٣٣-ابن سينا،رسالة في الصلاة، تحقيق حسن عاصي،ضمن التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،1983م،ص 213 .

٣٤-المحاسبي، القصد والرجوع إلى الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٨٦م ،ص 259،٢٦٠.

٣٥-المحاسبي،فهم الصلاة،ص 357 . وهو ما أكده الجنيد البغدادي لما سئل عن الإخلاص ما هو؟فكان جوابه:الإخلاص ما أريد به الله من أي عمل كان،فربط حقيقة الإخلاص بوجه الله تعالى وصدق طلبه والتوجه إليه وحده دون سواه.انظر الكلاباذي،التعرف لمذهب أهل التصوف، نشره أرثرجون أربري ،مكتبة الخانجي،القاهرة،بدون تاريخ،ص ٧٠.

٣٦-المحاسبي،آداب النفوس،ص 105.

٣٧-المحاسبي،رسالة المسترشدين،ص 170 .

٣٨-المصدر السابق،ص172 .

٣٩-أخرجه مسلم في صحيح (2985) باختلاف يسير.

٤٠-المحاسبي،رسالة المسترشدين،ص 82،ص١٣٣.

٤١-القشيري ، الرسالة القشيرية، ص٧١ .

٤٢-الطوسي، اللمع، حققه وقدم له عبد الحليم محمود،طه عبد الباقي، دار الكتب الحديثة، مصر ،1960م،ص 21 .

٤٣-القشيري،الرسالة القشيرية،ص ١٤٥.

٤٤-المحاسبي،التوهم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٨٦م ،،ص 422 .

٤٥-المحاسبي، آداب النفوس،ص48.

٤٦-المصدر السابق،الصفحة نفسها.

٤٧-أخرجه مسلم(٢٢٣)،والترمذي(٣٥١٧).

٤٨-المحاسبي،فهم الصلاة،ص 374

٤٩-المصدر السابق،الصفحة نفسها.

٥٠-السلمي،طبقات الصوفية،تحقيق نور الدين شريبه،مكتبة الخانجي،القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م،ص ٢٨١.

٥١-المحاسبي،البعث والنشور،تحقيق د.أبو اليزيد العجمي،دار الأزقي للنشر،الزقازيق،الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م،ص ٣٢ .

٥٢-المحاسبي، فهم الصلاة،ص 361.

٥٣-المصدر السابق،ص 364.

٥٤-المصدر السابق،الصفحة نفسها.

٥٥-نفسه.

٥٦-أخرجه مسلم في صحيحه،الحديث 294 من كتاب المسافرين.

٥٧-المحاسبي، فهم الصلاة،ص 365.

٥٨-المحاسبي،ماهية العقل،تحقيق د.حسين القوتلي،دار الفكر للنشر،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٧١م،ص 205.

٥٩-المصدر السابق،ص 210.

٦٠-المصدر السابق،الصفحة نفسها.

(61) Joh Renard, Knowledge Of God In Classical Sufism, Paulist press, New York,Mahwah,Nj,2004,p.34-٦٢

المحاسبي،كتاب العلم، حققه وقدم له محمد العابد مزالي،الدارالتونسية للنشر،الجزائر،١٩٧٥م،ص ٨٣،أيضاً بدء من أناب إلى الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٨٦م ،ص ٣٤٤ ،أيضاً مائية العقل،ص 218.

٦٣-المحاسبي،ماهية العقل،ص 221.

٦٤-المصدر السابق،ص 228.

٦٥-المحاسبي،النصائح،ص138.

٦٦-المصدر السابق،ص 131.

٦٧-محمد إقبال،تجديد الفكر الديني في الإسلام،ترجمة محمد يوسف عدس،تقديم الشيماء الدمرداش العقالي، دار الكتاب اللبناني،القاهرة،بيروت،الطبعة الأولى،ص ٢٠١٢م،ص ١٥٢.

٦٨-محمد صالح محمد السيد،دراسات في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر،دار الوفاء للطباعة والنشر،الإسكندرية،الطبعة الأولى،٢٠٢٢م،ص١٩٠.

٦٩-رواه البخاري، في كتاب الإيمان،باب فضل من استبرأ لدينه ١/28(52).

٧٠-المحاسبي،النصائح،ص ١٣٦.

٧١-المصدر السابق،الصفحة نفسها.

٧٢-المصدر السابق،ص 137.

٧٣-الغزالي،إحياء علوم الدين،الجزء الأول، دار ابن حزم،بيروت،لبنان، الطبعة الأولى،٢٠٠٥م،ص 191. كما أكد الإمام محمد عبده على ما أقره المحاسبي من ضرورة حضور القلب في الصلاة،بل وجعله وحده الكاشف للصلاة على حقيقتها،فصرح بأن الحق تعالى توعد الذين يقومون إلى الصلاة فيأتون بصورتها من الحركات والألفاظ والحروف،وهم في سهو عن معاني ما ينطقون به من عبارات وسرها فيها المؤدي إلى غايتها المتحقق في قوله تعالى"فوعدهم بالعذاب الأليم لأنهم أتوا بصورة الصلاة دون جوهرها،ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي"توجه القلب إلى الله تعالى بخشيته والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه".انظر محمد عبده، تفسير الفاتحة،مطبعة الموسوعات، مصر،ص ٢٦

٧٤-الرواي:أبو ذر الغفاري،المحدث:شعيب الأرناؤوط،المصدر:تخريج مشكل الآثار،الصفحة أو الرقم:١٤٢٨،الحكم:صحيح.

٧٥-المحاسبي،فهم الصلاة،ص ٣٧٠.

٧٦-المصدر السابق،الصفحة نفسها.

٧٧-المصدر نفسه،ص 366 .

٧٨-نفسه،ص ٣٦٧.

٧٩- المحاسبي،فهم الصلاة،ص٣٧٦ .

٨٠-الغزالي،إحياء علوم الدين،الجزء الأول،ص ٢٠٠

٨١- المحاسبي،النصائح،ص ٩٤،أيضاً المحاسبي،الرعاية لحقوق الله،ص٣٧٣ص،٣٧٧

٨٢-السهروردي البغدادي،عوارف المعارف،الجزء الثاني،تحقيق عبد الحليم محمود،محمود بن الشريف،دار المعارف ، القاهرة، بدون تاريخ،ص ٦٥،ص٧٠ .

٨٣- نفسه،ص ٧١.

٨٤-أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب،باب استحباب العفو والتواضع(٤/٢٠٠١) رقم ٢٥٨٨).

٨٥- المحاسبي،القصد والرجوع إلى الله،ص ٣١٨.

٨٦-المحاسبي،فهم الصلاة،ص 377.

٨٧-المحاسبي،آداب النفوس،ص ١٤٢،ص ٨٢١.

٨٨-المصدر السابق،ص١٤٥. وهو ما وافقه الطوسي بعد ذلك،لما صرح بالتوكل كمقام شريف،جعله مقروناً بالإيمان،لقوله تعالى:"وعلى الله فليتوكل المتوكلون""إبراهيم:١٢) ثم قال في موضع آخر المؤمنون فخص بذلك توكل المتوكلين من توكل المؤمنين،ولم يقف عند ذلك،بل تعداه لذكر توكل خصوص الخصوص،وهو ما دلل عليه الطوسي بقوله تعالى:" ومن يتوكل على الله فهو حسبه""الطلاق:٣"وفسره بأن الحق لم يردهم إلى شيء سواه،كما فعل مع حبيبه المصطفى الذي هو أعلى المتوكلين درجة،فقال:" وتوكل على الحي الذي لا يموت"" الفرقان:٥٨".انظر الطوسي،اللمع،ص٧٨.

٨٩-المحاسبي،القصد والرجوع إلى الله،ص ٢٦٧.

٩٠-المحاسبي،المسائل في الزهد،اعتنى به محمد خليل إبراهيم،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،٢٠١٩م،ص١٦. فالشكر في حقيقته يتضمن الاعتراف بالالوهية وبعظيم فضله تعالى على سائر خلقه؛ لهذا قال أبو سعيد الخراز: الشكر الاعتراف للمنعم والإقرار بالربوبية.انظر الكلاباذي،التعرف لمذهب أهل التصوف،ص ٧١.

٩١-المحاسبي،معاتبة النفس،تحقيق محمد عبد القادر عطا،دار الاعتصام للنشر،القاهرة،بدون تاريخ،ص ٥٢ ،أيضاً، فهم الصلاة،ص ٣٧٧.

٩٢-الراوي:أنس بن مالك،المحدث:البخاري،المصدر : صحيح البخاري،رقم ١٣.

٩٣-المحاسبي،رسالة المسترشدين،ص١٧٩.

٩٤-المحاسبي،كتاب فهم الصلاة،ص ٣٦٥،ص ٩٦٣.

٩٥-المصدر السابق،ص ٣٦٩.

٩٦-المحاسبي،فهم القرآن تحقيق د.حسين القوتلي،دار الفكر للنشر،بيروت،لبنان،الطبعة الأولى،١٩٧١م،،ص ٢٧٥،أيضاً فهم الصلاة،ص ٣٦٨.

٩٧-المحاسبي، المسائل في أعمال القلوب والجوارح،تحقيق عبد القادرأحمد عطا ،عالم الكتب،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٦٩م ،ص١١٦.

٩٨-المحاسبي، فهم الصلاة،ص ٣٧٨.

٩٩-المحاسبي، القصد والرجوع إلى الله،ص ٣٢١.

١٠٠-المحاسبي، الرعاية لحقوق الله،ص٤١

١٠١-المحاسبي، شرح المعرفة وبذل النصيحة،حققه وعلق عليه أبو مريم مجدي فتحي،دار الصحابة للتراث،طنطا، الطبعة الأولى،1993م،ص 22.

١٠٢- المحاسبي، آداب النفوس،ص 52.

قائمة المصادروالمراجع

أولاً:مؤلفات المحاسبي:

١. آداب النفوس، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٩١م.

٢. البعث والنشور، تحقيق د.أبو اليزيد العجمي، دار الأزقي للنشر، الزقازيق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.

٣. التوهم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨٦م.

٤. الرعاية لحقوق الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

٥. القصد والرجوع إلى الله، عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨٦م.

٦. المسائل في الزهد، اعتنى به محمد خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،٢٠١٩م .

٧. المسائل أعمال القلوب والجوارح، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ،عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٦٩م.

٨. النصائح، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨٦م.

٩. بدء من أناب إلى الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨٦م .

١٠. شرح المعرفة وبذل النصيحة، حققه وعلق عليه أبو مريم مجدي فتحي، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى،1993م .

١١. رسالة المسترشدين، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الثانية،١٩٧١ م.

١٢. فهم الصلاة، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٨٦م .

١٣. فهم القرآن تحقيق د.حسين القوتلي، دار الفكر للنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٧١م .

١٤. كتاب العلم، حققه وقدم له محمد العابد مزالي، الدار التونسية للنشر ،الجزائر ،١٩٧٥م

١٥. ماهية العقل، تحقيق د.حسين القوتلي، دار الفكر للنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٩٧١م .

١٦. معاتبة النفس، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الاعتصام للنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

ثانياً المصادر والمراجع العربية :

١٧. ابن القيم، ذوق الصلاة، إعداد عادل الزرقي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى،2009م .

١٨. ابن تيمية، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، تحقيق د.يحيي بن محمد بن عبد الله الهنيدي، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م .

١٩. ابن تيمية، العبودية، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار الأصالة، الإسماعيلية، الطبعة الثالثة، 1999م .

٢٠. ابن سينا، رسالة في الصلاة، تحقيق حسن عاصي، ضمن التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1983م .

٢١. أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب،الجزء الثالث، حققه وقدم له د.محمود إبراهيم محمد الرضواني، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠٠١ م.

٢٢. أحمد محمود الجزار، التصوف عند رواد الفكر المصري المعاصر، كنز ناشرون ،لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ،2021م .

٢٣. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، الجزء الثامن، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى،١٩٣١م .

٢٤. السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م .

٢٥. السهروردي البغدادي، عوارف المعارف، الجزء الثاني، تحقيق عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، دار المعارف ، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٦. الطوسي، اللمع، حققه وقدم له عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي، دار الكتب الحديثة، مصر ،1960م .

٢٧. الغزالي،إحياء علوم الدين، الجزء الأول، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،٢٠٠٥م .

٢٨. الغزالي،المنقذ من الضلال، تحقيق د.محمد محمد أبو ليلة، د.نورشيف عبد الرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية،٢٠٠١م .

٢٩. القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، اعتنى به وحققه أبو سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠١٤م.
٣٠. الهجويري، كشف المحجوب، الجزء الثاني، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،٢٠٠٧م .
٣١. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الأول، بدون تاريخ .
٣٢. عبد الحليم محمود، العبادة أحكام وأسرار، دارغريب للنشر، القاهرة، ١٩٩٨م.
٣٣. عبد الحليم محمود، استاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي،دار المعارف،القاهرة،بدون تاريخ. .
٣٤. محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة محمد يوسف عدس، تقديم الشيماء الدمرداش العقالي، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، الطبعة الأولى،ص ٢٠١٢م.
٣٥. محمد صالح محمد السيد، دراسات في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى،٢٠٢٢م .
٣٦. محمد عبده، رسالة التوحيد، ضمن الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، تحقيق د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٩٣م .

ثالثاً المراجع الأجنبية:

37- Eric GeoffroY, Introduction to sufism: The Inner path of islam, translated by, Roger Gaetani, world wisdom, Inc, United States of America,2010.

38-James Fadiman, Robert Frager, Essential

sufism, castle books ,New Jersey,1998.

39-Joh Renard, Knowledge of God In Classical Sufism, Paulist press, New York,Mahwah,Nj,2004.

Spiritual and moral connotations of worship according to Al-Muhasabi Prayer as amodel Analytical study

Abstract:

The various legal acts of worship are the test to which we refer to ascertain the belief of the servant and his glorification of his creator.In addition to their effective role in strengthening the relationship between man and achieving his moral perfection in his relationship with creation on the other hand, the complete collection of these legal acts of worship,their apparent pillars and their inward conditions, was asource of inspiration for Sufi sheikhs from among the people of mysticism.Hence, this study came to reveal the spiritual and moral connocations of one of the greatest religious acts of worship,which is prayer According to one of the poles of Sunni mysticism in his time, al-Muhasabi. Throuh the study, reached anumber of results, Al-Muhasabi linked conditionally between the knowledge of God on the one hand,and all acts of righteousness on the other hand,He made the relationship between them direct,the more aservant's knowledge of more his works would be completed with it, and vice versa.knowledge is the key to every thing that aperson does..]

Key words: Mystical, worship, prayer, ethics - reason, heart.